كتب ثقافية



حاجة المجتمع إلى الدين

بقلم
فضيلة الأستاذ
محمد احمد فرج السنهوري





كتب ثقافيــــة

حاجة المجتمع إلى الدين

لفضيلة الشيخ محمد أحمد فرج السنهوري

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه فصول تنظر فى المجتمعات وحاجتها إلى الدين كي يستقيم أمرها وتنال استقرارها النفسى والاجتماعى والاقتصادى .

وفى الوقت نفسه تبين عجز الوسائل الأخرى عن تحقيق هذا الاستقرار للمجتمع .

ثم تتناول منهج الإسلام فى تحقيق هذه الغاية وتعرض جانباً من المعاملات التى يحتاج إليها الناس فى مجتمعاتهم على ضوء ما رسم الإسلام الحنيف وتنتهى ببيان جانب من الروابط الانسانية التى تحتاج إليها المجتمعات السعيدة ومنهج الإسلام فى بثها فى النفوس واعتناق الناس لها .

وجاءت هذه الدراسة فى أربعة فصول :

الأول ... عن حاجة المجتمع إلى الدين .

الثانى ... المنهج الإسلامى .

الثالث ... المعاملات الإسلامية .

الرابع ... الروابط الانسانية فى الإسلام .

الأستاذ الدكتور
عبد العزيز همام
رئيس قسم اللغة العربية
بالإسكندرية

الفصل الأول

تمهيد

تمهيد :

قال الله جل قدره وعظمت قدرته : (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون) وقال جلت حكمته (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً) . وروى البخارى ومسلم فى الصحيحين أن ابن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق الصدوق : أن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الملك فينفخ فيه ويؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد فو الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها .

هكذا تكون نشأة الإنسان وحياته ومعاده كما وصف الكتاب الكريم وحدثت السنه النبوية ، مادة وقوة ، جسم وروح ، كائن حى ظفر بحياته من امتزاج هذين العنصرين تمام الامتزاج ، لا عمل لواحد منها إلا بمعونة الآخر ،

وليس له شان يذكر بدون صاحبه . ويتدرج هذا الكائن من الضعف والطفولة إلى الشباب والقوة حتى يبلغ أشده ، ثم ينحدر إلى المغيب ، إلى الضعف والشيخوخة والانحلال وتفرق عنصريه ثم تكون النشاة الأخرى ، البعث والنشور وحياة الخلود ، وحياته الأولى حياة اختبار وابتلاء ، له فيها أعمال الخير وأعمال الشر ، وله فيها أسباب السعادة وأسباب الشقاوة فى كل من أولاه وأخراه. وله فى حياته الأخرى جزاء أعماله وما قدمت يداه ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

والعنصر المادى محس مبصر ، أدرك الناس حقيقته ، وعرفوا أمر ظاهره وباطنه ، ووقفوا على الأعم الأكثر من خصائصه ووظائفه . أما الروح فهى قبس من عند الله ، لا يعرف أحد حقيقتها ، ولا يدرك شكلها وصورتها ، ولا يعلم أين مستقرها ولا طبيعة امتزاجها بالعنصر المادى ، فكل ذلك من الأسرار الكونية التى استأثر الله سبحانه بعلمها (ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) وقد خاض الناس فى هذا الشأن قديماً وحديثاً فما جاءوا فيه إلا بأوهام وتخيلات لا ساق لها ولا قدم . ولا ضير علينا إن جهلنا ذلك لا فى معاشنا ولا فى معادنا ، وكل الذى علينا هو أن نمعن فى النظر ، ونستقصى فى البحث ونحسن المراقبة ، لنقف على ما لكل من العنصرين وما يطرأ عليه من الصفات وما يحتاج إليه من نمو وقوة ، وما له من النزعات والنزوات ، وما يصيبه من الآفات ، ولنعرف مدى ما بين هذين العنصرين من الامتزاج ، ومبلغ ما بينهما من تعاون ، ومقدار خضوع كل منهما لصاحبه وتأثره بما يمليه عليه ويدفعه إليه وما عساه أن ينشأ بينهما من صراع تثيره العوامل المختلفة خارجية كانت أو داخلية علينا أن نراقب كل هذا وأن تتدبر أمره حتي يتيسر لنا أن نسلك بالنفس البشرية مسلك القصد والاعتدال ، وأن نربيها منذ أن تبدأ نشأتها على الفضائل وأن نوجهها وجهة الخير ونعودها أعماله ، ونباعد بينها وبين اتجاهات الشرور وسلوك سبلها لكى يظفر المجتمع الإنسانى بأكبر قسط مستطاع من السعادة فى هذه الدنيا وفى الدار الآخرة . وعلم هذه المسائل وما يتصل بها واسع الأرجاء بعيد الغور متشعب المسالك خاض فيه السابقون واللاحقون وتناولته علوم مختلفة ، وليس يعنينى

من كل هذا إلا الإشارة إلى طرف يسير جداً من الحقائق المشاهده لتكون بمثابة فاتحة لهذا الموضوع حاجة المجتمع إلى الدين .

لا ريب فى أن العنصر الروحي يكون ملائماً للعنصر المادي عند بدء امتزاجهما ثم يسايره فى جميع أطواره ، فهو ينمو ويتدرج مثله فى استكمال قوته وسائر صفاته حتى إذا بدأ كمالها اجتمعت له قوى ثلاث ، القوة العاذبة المستحبة ، والقوة الحساسة المحركة والقوة العاقلة المفكرة ، المدبرة المتبصرة ، والقوة الأخيرة هى أفضل مامنح الإنسان وبها يمتاز عن سائر الحيوان ، وبها يتمكن من تسخير ما حوله لمنافعه .

والعنصر الروحى يستمد هذه القوة من استعداده الفطرى ، ومما يفيده من كل ما هو محيط به ، وإذا انحرف فى هذه الإفادة عن الصراط المستقيم كانت له أمراضه وآفاته كما تكون للعنصر المادى آفاته إذا انحرف ، فكل من العنصرين فى حاجة إلى التربية والتعهد فى عناية وحذر ، بل العنصر الروحى أحوج ما يكون إلى الرعاية والحذر ، وإلى هذا يشير قوله عليه الصلاة والسلام ما نحل والد ولداً من نحل أفضل من أدب حسن .

ولكل من العنصرين غذاؤه ومطالبه ، ولكل منهما آلامه ولذائذه ، وكثيراً ما يتغلب العنصر المادى بقوة أن العالم عالمه ، وأن البيئة بيئته ، وأن العنصر الروحى طارىء مغترب ، وقد يتغلب العنصر الروحى بقوة مصدره وسموه وغلبة هذ أو ذاك إلى درجة الجور قد تفضى إلى مصائب الآخر وكوارثه فوضعهما أحوج ما يكون إلى ما يحفظ التوازن بينهما ويسلك بهما سبيل القصد والاعتدال ، وفى هذا وحده خير المجتمع الإنسانى .

والأرواح كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، وللتناكر أسبابه الكثيرة وللاختلاف شروره المتكاثرة ، وعواقبه الاجتماعية الوخيمة ، فأى مجتمع إنسانى أحوج ما يكون إلى تربية النفوس وتهذيبها وحفظ التوازن بين عنصرى الإنسان ، وما يكفل القضاء على مفاسد التنافر والاختلاف ، وسنرى إن شاء الله ان المنهج الاسلامى فى تربية الضمير الروحى والوازع الدينى خير سبيل للوصول إلى هذه الأهداف .

الانسان بين الخير والشر

الباحثون والمفكرون منذ القدم على طرائق شتى فيما يرجع إلى طبائع الانسان وغرائزه وإلى ما يمكن أن يطرأ عليها ، فمن قائل إن الانسان خلق خيراً بطبعه أما الشر فطارىء عليه ، لا فرق فى هذا بين إنسان وآخر . ومن قائل إن الانسان خلق شريراً بطبعه ، أما الخير فطارىء عليه ، لا فرق فى هذا بين انسان وآخر . ومن قائل إن الناس ليسوا سواء فى هذا ، فمنهم من خلق بطبعه ، ومنهم من خلق شريراً بفطرته ، والكثرة الساحقة من هؤلاء الباحثين قد اتفقوا ، مع اختلاف مذاهبهم ، على أن ما يكون عليه الإنسان من خير أو شر من الأمور التي تقبل التغيير والتبديل وشذت شرذمة قليلة فخرجوا على إجماع المفكرين وذهبوا إلى أن الارادة الانسانية سجينة فى نطاق حديدى من الغرائز والطبائع التى لا تقبل تحولا ولا تطوراً . وقالوا إن خلق الانسان كخلقه ، فكما لا يمكن الإنسان تحويل خلقه من الطول إلى القصر ، ومن الدمامة إلى الوسامة ، وغير ذلك من الصفات الظاهرة ، لا يمكنه أن يحول فطرته النفسية ولا طبيعته الباطنة التى جاء بها إلى هذا العالم عند ولادته ، إذ لا فرق بين فطرة وفطرة ، فكلاهما من صنع الله الذى لا تبديل لخلقه . كما قالوا أنه لا فائدة ترجى من وراء أعمال التأديب والتربية والتهذيب ، وإن كثيراً من أهل المجاهدة والرياضة قد حاولوا أن يحطموا فى أنفسهم قوى الشهوة والشرور ، وأن يميتوا فيها نزوات الرذائل ، وأن يسكنوا غرائز الأمل والألم فباءوا بالفشل . وهؤلاء الشذاذ هم الذين يقول عنهم الاخلاقيون إنهم غلاة الجبرية وإنهم هم الجامدون المتشائمون ، كما يسميهم الإمام الغزالى أهل البطالة والكسل .

وما ورد فى الكتاب الكريم وفى السنة النبوية الصحيحة ، وما استنبطه الأئمة المحققون يهدينا إلى الطريقة المستقيمة ، ويوجهنا التوجيه الصحيح . وهو أن الانسان قد ركبه الله جلت حكمته من عنصريه ، الروح والمادة . فالعنصر الروحى هو الروح أى النفس الانسانية ، النفس الناطقة العاقلة المفكرة المتخيلة ذات الأحاسيس والمشاعر ، وهى لطيفة ربانية من أمر الله سبحانه ، أى من عالم الأمر ، عالم الملأ الأعلى ، عالم الكمال ، والعنصر المادى وان كان للعنصر الروحى كالوعاء وكالآلة فى يد العامل له خصائصه ومميزاته ، وله حاجته ومطالبه التى يوحى بها إلى الروح وله إغراؤه ، والروح متى اتصلت بالمادة حجبتها عن عالمها وانتسبت إليها وتعشقت لذائذها ، واستجابت لما توحى به ، وأصبحت فى عالمها الجديد بين أمرين ، طيب عنصرها وفطرتها ، والايحاءات التى تتلقاها من مستقرها ومستودعها . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فالروح حين تنفخ فى الجسد لم يخلقها الله سبحانه الخلق الكامل المستجمع لكل أطوارها ، كما لم يخلقها جل شأنه جامدة ضعيفة غير قابلة للنمو والمقاومة ، بل خلقها وليدة تساير فى نموها وبلوغ أشدها نمو البدن وتدرجه فى القوة ، منطوية على كل امكانيات الكمال ، وقابلة بفطرتها وحكم العالم الذى انتقلت إليه كما يشاء الله من درجات الترقى أو درجات التدلى والانحطاط ، فهى منذ البداية أحوج ما تكون إلى التعهد والتربية ، والتأديب والتهذيب ، لا تستغنى عن ذلك فى أى طور من أطوارها فإذا نالت حظها الأوفى من ذلك كانت النفس المطمئنة الراضية ، وإن لحقها بعض الإهمال خلطت عملا صالحاً وآخر سيئاً وكانت النفس اللوامة ، وإن أهملت إهمالا تاما ران على القلوب ما اكتسبت وتركت طبقات الصدأ على النفس فكانت النفس الأمارة بالسوء ومن تدبر هذا ووعاه وتذوقه وفهمه واضحاً فى قوله تعالى : لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم — وقوله جل قدره : « فطرة الله التى فطر الناس عليها » — وقوله تعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها » ، « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا » — « وهديناه النجدين فلا اقتحم

العقبة » — وجاهدوا فى الله حق جهاده » —« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » — « ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » — وقوله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » — وقال ﷺ للأشج المنذر بن عائذ : « إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة » . قال يا رسول الله قديماً كانا فى أم حديثاً ؟ قال : قديماً . قال : الحمد لله الذى جبلنى على خلتين يحبهما الله ورسوله . وكان ﷺ يقول فى دعائه : اللهم كما حسنت خَلقى فحسن خُلقى ويقول : واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت .

فالنفس الإنسانية ابان اتصالها بالجسد فى حاجة إلى التربية والتاديب والتهذيب والهداية ، وهى قابلة للترقى فى معارج الخير حتى تبلغ درجة الاشراق والقرب من عالمها الأصلى ، كما أنها قابلة للتولى والانتكاس حتى تصل إلى حضيض شر الدواب ، فى أحوج ما تكون إلى تربية القوى الذى يقوم على حراستها ويكفل لها الهداية والسير فى طريق الخير والأعمال الصالحة لها نفسها وللمجتمع الذى المجتمع الذى تعيش فيه وكلما ازدادت قوة الوازع كان أبلغ أثراً وأعظم نفعاً . وهو إنما يستمد قوته من مصدره ومن منهجه ومن الآثار التى تنجم عن أتباعه أو عن مخالفته . ومن الناس من يعتمد على الوازع الخلقى ، وازع الآداب والعادات والتقاليد . ومنهم من يقول على الوازع العقلى وحده ويرى فيه الكفاية ومنهم من يتجه إلى الوازع القانونى ، الوازع الذى يخلقه قانون الجريمة والعقاب الوضعى . وهناك الوازع الدينى الوازع الإلهى المستمد مما شرعه الله سبحانه لعباده وسنه العليم الخبير لهدايتهم . ومتى نظرنا إليها جميعاً النظرة الصادقة ، ووازنا بينها فى إنصاف وفى غير تحيز ، وجدنا أن وازع الدين السماوى هو أشد قوة ، وأكملها منهجاً ، وأوسعها دائرة ، وأعظمها ملاءمة للنفوس وفطرتها لا تشوبه شائبة من عيوب الوازعات الأخرى ، كما سنفصل هذا إن شاء الله . ولهذا لم يترك الله جلت حكمته عباده سدى ، لم يكلهم إلى عقولهم

وما تهـوى ، ولم يسلمهم إلى ما تترسمه آدابهم وتقاليـدهم وعاداتهم ، وقضى أنه لا حكم الا لله وحده ، وشرع الأحكام ما فيه تزكية نفوسهم وتطهيرها ، ويكفل لهم الخير الـكامل فى معاشهم وفى معادهم وسنّ لهم مكارم الأخـلاق ، وحميـد الآداب والعادات ، وأرسل إليهم رسله مبلغين لرسالات ربهم ، هداة إلى الحق وإلى سواء السبيل ، مبشرين ومنذرين ، حتى لا يـكون للنـاس على الله حجة بعد الرسل .

ضعف الوازع الخلقى

لا مراء فيا للوازع الخلقى فى المكانة ، ولا فى الأثر الجميل للضمير النفسى الذى تخلفه العادات والتقاليد وآداب السلوك المستقيم ، غير أنهما وحدهما لا غناء فيهما ، وليس فى مقدورهما أن يفيا للمجتمع الإنسانى بما يحتاج إليه ولا أن يكفلا له الحياة المستقيمة الجامعة التى يصبو إليها ، فما العادات والآداب الا وليدة الاقليم والمناخ والتاريخ والجنس والوراثة ، ولذا جاءت الفضائل والرذائل فى الأقاليم المختلفة على تضارب وتناقض بين ، هذا إلى أن العادات وآداب السلوك فى الاقليم الواحد متأرجحة وغير ثابتة ، فكل عصر يخلق عاداته وكل حضارة تخلق آدابها وإذا كان عظماء الاخلاقيين ومثقفى النفوس ترمى مجهوداتهم على الدوام إلى سلامة النفس وإلباسها حلة بهية من القوة والصحة والصفاء ، وإلى التغلب على كل ما يصيبها من الآفات والضعف والشوائب فإنهم كانوا فى ذلك على طرائق شتى وجاؤنا بنماذج أخلاقية متباينة ومتضاربة انتزع كل منهم ما انتزعه من المُثُل التى تصورها ، ومن المذهب الذى ابتكره ، أو من المذهب القديم الذى عمد إلى تجديده ولقد حاول الأخلاقيون فى العصور الحديثة أن يبحثوا عن قانون ثابت للعاذات والآداب يربط الانسانية فلم يجدوه ولم يكن عجباً إلا يجدوه وإنما كان عجباً أن يشتغلوا بالبحث عنه .

لقد دفعت إنجلترا بأساليبها الخفية المعروفة عصبة الأمم إلى السعى لحمل المجتمع الإنساني المتحضر على انتهاج ما عليه الإنجليز من العادات والآداب ، والحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، ولكن مساعيها باءت بالفشل وبقيت العادات والآداب كما كانت وبقيت قوانين الفضيلة والرزيلة التى تقوم عليها متضاربة وومتناقضة ، ومتأرجحة غير ثابتة حتى فى الفضائل التى نالت احتراما

عالمياً ، فقانون الفضيلة يحرم على المرء ان يقتل نفسه ، ولكن لا يزال من الشعوب من تقضي آدابه على أتباعه أن تكون لديهم الشجاعة لقتل أنفسهم ومن أعرض عن هذا كان فى قمة الرذيلة ، فإذا كانت السرقة رذيلة عند الأمم المتحضرة فهناك شعوب لا ترى فيها رذيلة على أنه توجد عند الأمم المتحضرة صور وتحترم فيها اللصوص القانونيون الذين تعترف بهم القوانين والآداب معاً .. وهكذا الشأن فى القتل وفى الكذب وفى ارتكاب الفاحشة وفى الأخذ بالثأر ، وفى تعدد الزوجات ، وفى تعدد الأزواج للمرأة الواحدة وفى كثير غيرها فلا غرابة إذا كان هذا أقوى مكمن لضعف الوازع الخلقى وما ينشأ عنه من الضمير الروحى .

ثم يأتى بعد ذلك عامل آخر من عوامل ضعفه هو ضعف منفعته ، فليس للآداب والعادات فى كل أمه منعة تحميها إلا سخط الرأى العام فيها واستنكاره لانتهاك حرماتها .. وكثيراً ما يصاب المجتمع بالفتور والتهاون ويقعد عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فلا تجد العادات والآداب لها نصيراً ، وكم من قرية كان أهلها لا يتناهون عن منكر فعلوه ويأتون المنكر فى نواديهم فكانوا موضع سخط الله ونقمته ، وليس مما ينسي تسلط القادة والسادة والكبراء المفسدين وعبثهم بهذه المراقبة ، وإلى هذا يشير قوله (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) وقوله جل شأنه على لسان أهل النار (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً .

ومن أسوأ العوامل فى هذا السبيل ما يصيب الأمم من عدوى الرذائل التى تنتقل إليها من الوافدات التى تقصد إليها ويعمل دعاة السوء على الذود عنها والانتصار لها فيقتلون فى الأمة روح الرقابة على آدابها وعاداتها وما ورثته من مكارم الأخلاق .

ولقد فطن المستعمرون الغربيون إلى هذه الوسائل واستعملوها على أوسع نطاق ، حيث وجدوا أن هدفهم ، وهو الاستعمار الاقتصادى والسياسى ، لا

يمكن أن يقوم إلا على أساس من الاستمرار التشريعي والاستمرار الأخلاقي ، حتى يتمكنوا من تفريق الكلمة ، وقتل العادات والآداب الشرقية ، والحمية العربية ففعلوا ، وسخروا أشياعهم في الدعاية لما أفسدوا .

ولو أن العادات والآداب في أمة من الأمم بقيت ثابتة متوارثة ، وكانت الرقابة عليها كاملة قوية لم يصبها وهن ، فماذا عسى أن يخشاه من خرج عليها في خفية وأمكن أن يفلت من هذه الرقابة وألا يظهر أحد على فعلته ؟ إنه لا يخشى شيئاً أصلاً ، فالمجتمع الذي يعيش فيه ليس غلام الغيوب . . والمفروض أنه ليس هناك جزاء إلا جزاء المجتمع وبهذا يظهر عامل آخر لضعف الوازع الخلقي وعدم كفايته وحسن الوفاء بما يحتاج إليه المجتمع الانساني .

التشريع الوضعى

الضمير النفسى الروحى الصالح هو خير هاد إلى الصراط المستقيم ، وحافز على إرادة الخير وفعله ، وعلى مقت الشر واجتنابه ، وهو وحده الذى يكفل للإنسانية أعظم حظ من السعادة .

وهذ الضمير لا ينشأ ويحيا ، ولا ينمو ويشتد ، ولا يسلم من الآفات إلا فى ظل وازع يهيء له الجو الصالح ، ويبسط عليه حمايته ، ويكون حصنه المنيع وللوازع أنواعه المختلفة التى تتفاوت فى القوة والضعف ، وفى مقدار ما تسديه للضمير الإنسانى ، من المعونة والحماية ، وقد تناولت الوازع الخلقى ، ذلك الوازع الذى لا مصدر له سوى السلوك العام والتقاليد ، والعادات الحميدة ، وأثبت ما له من المزايا ، وذكرت أسباب ضعفه وأنه وحده لا يمكن أن يكفل لهذا الضمير ما هو فى حاجة اليه .. وتناولت أيضاً الوازع العقلى المجرد وأثبت أنه وحده لا يكفل شيئاً من ذلك الا فى ضعف واشتباه واضطراب ، ولهذا لم يترك الله جلت حكمته عباده سدى ولم يكلهم الى عقولهم وسن لهم شرائعه وأرسل اليهم رسله مبلغين وهداة مبينين ..

أما وازع التشريعات الوضعية فهو أقل الوازعات شأناً ، وأضعفها أثراً ، فهو ضعيف فى مصدره ، وضعيف فى منهجه ، وضعيف فى رقابته ، وضعيف فى آثار الجزاء الذى يقرره .

والنظرة الصادقة غير المتحيزة تقطع بأنه وازع مادى محض ليس فى مقدوره ان يخلق الضمير الروحى أصلا ، وليس فى استطاعته وحده أن يشد أزره ولا أن يقوم بحمايته .

التشريعات الوضعية لا تقوم إلا على منطق العقل وحده ، ولا مصدر لها إلا ما يصل اليه فرد واحد أو فئة قليلة جداً عن طريق تفكيرهم وتجاربهم وما قد يلوح لهم من الأهداف وللحياة الانسانية نواحيها الكثيرة المتشعبة ، ولها أسرارها التى لا حصر لها ، ومنها مايظهر أمره ، ومنها ما يدق ويخفى وتضل فيه العقول ..

وللناس فى هذه الحياة مطالبهم وحاجاتهم المختلفة ، ولهم أطماعهم وغرائزهم ونزواتهم ، والمصالح على اختلافها متشابكة ومتضاربة ، ولاختلاف الأزمنة والبقاع أثره الذى لا يدفع ، وللعادات والتقاليد المتوارثة سلطانها القوى ، وعن كل هذا كانت الحياة الانسانية مفعمة والمشكلات والمنازعات ، والتجارب مهما كان أمرها ناقصة والعقول مهما بلغ شأوها قاصرة على الدوام عرضة للخطأ والزلل ، وما يصدر عنها من الآراء والأحكام دائماً فى تنازع وصراع .

والعقل البشرى الذى لاهادى له ولم يسنده العون الإلهى أعجز مايكون عن أن يقود هذه الحياة قيادة صالحة ، وأعجز ما يكون عن أن يضع النظام الذى يكفل لأى جماعة خيرها وسعادتها ، وما مثل العقل البشرى أمام هذه الحياة الا كمثل من يقف أمام بحر لجى متلاطم الأمواج بعيد الأغوار لا يبصر شواطئه ولا يدرك نهايته ثم يريد أن يعبره بلا معين ، وبلا أسباب لديه .

لهذا لم يكن عجبا أن نرى التشريعات الوضعية متضاربة تضاربا بعيد المدى حتى فى أصول المسائل ، هذا التضارب الذى لم تنفع فيه المؤتمرات الكثيرة المتلاحقة التى تحاول التوفيق والتقريب ..

واذا كان من التشريعات الوضعية ما أصاب نجاحاً فانه لا سر له سوى ما اشتملت عليه من أحكام التشريعات الإلهية . وما تقرره قواعد الأخلاق والعادات الجيدة ، الذى استقر فى النفوس على توالى العصور ، فدخل هذه التشريعات من هذا الباب وحده كان سر نجاحها .

أما تشريعات الأمم المتبربرة التى لم يحكمها دين سماوى فهى أبعد ما تكون عن النجاح وليست الا تشريع الغاب كما يقولون ..

واذا كان الواقع يقطع بان هذ هو السر فى نجاح التشريعات الوضعية عند الأمم المتحضرة فما الذى يمنعنا من أن نعود بها الى مصدرها الذى يخلق الضمير الروحى ويرسيه ، وفى هذا الخير الكثير للانسانية ..

ومنهج التشريع الوضعى منهج غير شامل ، فهو لا يواجه كثيراً من نواحى الحياة التى يجب أن يتناولها التشريع وليس شأنه فى هذا كشأن التشريع الإلهى ، وهو فى الوقت نفسه منهج مادى محض ، لا يخلق ضميراً روحياً ، ولا يقويه ولا يحميه ، بل يترك كل هذا للتربية الدينية الأخلاقية .. أضف إلى هذا أن من الأمم المختلفة من تفتتن بأمة أخرى لعامل أو عوامل متعددة فيأخذها الولع بتقليدها ، والسير فى ركبها فتأخذ عنها تشريعا ، وكثيراً ما يكون غير ملائم لها ، وحتى هذا التقليد قد أصبحت وباء منتشراً فى كثير من الأمم ، وهذا منهج ينطوى على خطر داهم .

هذا إلى أن من التشريعات الوضعية ما لم تراع فيه مصلحة الجماعة أصلا ، ولم يسن إلا لخدمة فرد واحد متسلط ، ولمصلحة حزب بعينه مهما كان الأمر ، ومهما انطوى على الضرر البالغ بمصالح الأمة نفسها .

والنفس لا ترجع عن غيها ما لم يكن لها زاجر منها ، وهذا الزاجر النفسى ليس إلا الضمير الروحى ، خلقياً كان أو دينياً .

وهذا الضمير لا صلة له بالتشريع الوضعى الذى لم يستمد منه مكانه ولا قوته ولا يحيا فى ظله ، فليس من المرتقب بحال أن يكون هذا الضمير عاملا من عوامل إطاعة التشريع الوضعى وما قرأناه ونقرؤه ، وما سمعناه ونسمعه عما يصيب بعض المجرمين من الانزعاج المتواصل ، والاضطراب المفرط ، والانهيار البالغ ، ليس إلا تعذيب الضمير الروحى لمخالفة تعاليم الدين أو قانون الفضيلة الذى ربى هذا الضمير وليس ندما على مخالفة التشريع الوضعى الذى لا يمت بصلة الى هذا الضمير فليس لدى التشريع الوضعى ما يكفل إطاعته إلا رقابة الجهاز القائم على حمايته وتنفيذه .

وعلى أى حال لا يمكن أن تكفل إطاعة التشريع كفالة الضمير الروحى ،

ولولا هذا ما كانت هناك حاجة إلى إعلان الأحكام العرفية والاستعانة بالجيوش حين يجد الجد ولولا هذا لما استثنت الدولة الواحدة بعض الأماكن لتطبق فيها أحكام أخرى .. الأمور التي لا يعرفها التاريخ أزمان كان يسود الإيمان ويطبق التشريع الإلهي الصحيح . ومن نظر النظرة المنصفة إلى الحياة أدرك ما يؤديه الضمير الروحي في حسم النزاع عن طريق رسل السلام ومجالس الصلح ، وهو ما لا يستطيعه التشريع الوضعي بحال ..

وإذا أفلت المرء من الرقابة ولم تصل اليه يد التشريع الوضعي لم يبق لديه ما يخشاه فهو تشريع لا يقوم على بعث ونشور ، وليس هناك ما يحمل على اطاعته من خشية الجزاء في الدار الآخرة ، وهذا عامل من أقوى عوامل التهاون بهذا التشريع الذي لا يخشى المرء من وراء مخالفته تعذيب ضمير ولا حسابا إلهيا ولا عقابا أخرويا ..

الوازع الديني

إن الوازع الوحيد الذي لا تشوبه شائبة من ضعف ولا يعتوره نقص ولا قصور ، ويحقق للمجتمع هذه الأهداف ويصل به إلى تلك الغايات ، ليس شيئاً آخر سوى الدين فهو الوازع الذي يلائم الفطرة الإنسانية من جميع نواحيها وتقبل عليها النفوس في رغبة وشوق بغريزتها ، وهو الوازع القوي بمصدره ، وهو ذو المنهج الشامل الجامع لكل المناهج وهو الذي تحوطه الرقابة الواقية الكافية التي لا تخفى عليها خافية ، وهو صاحب الجزاء الأوفى الكفيل بإطاعته والتزام حدوده ..

وإذا ذكرت دينا فلا أعني إلا الدين السماوي ، الدين الإلهي ، الدين الذي شرعه الله جلت حكمته لعباده ، وأرسل به رسله إليهم متعاقبين منذ كانت الانسانية الى ان انطوى الوحي الإلهي ، وهو دين واحد في أهدافه ، وفي أصوله ، وما كان الاختلاف في تفصيل بعض أحكامه باختلاف العصور والرسل الا مسايرة لتطور الانسانية في حياتها وتقدمها ، حتى اذا بلغت أشدها واستكملت العقول البشرية قوتها جاء خاتم المرسلين عليه الصلاة والسلام بإكمال الدين وإتمام النعمة ورضاء الله لعباده الاسلام ديناً .

(ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ـ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ـ قل آمنا بالله وما انزل علينا وما انزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسي والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ـ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) .

ان الدين الإلهى الذى دعا اليه جميع الرسل ، ولم تبعث به الأهواء ، ولم تندس بين تعاليمه الخيالات ، والمفتريات ، وبلغ الغاية من الكمال بدعوة خاتم النبيين والمرسلين هو دين الفطرة الانسانية النقية الصافية التى لم تدنسها الشبه والتضليلات ولم تسحرها الكلمات الرنانة الجوفاء ، ولم تستعبدها أهواء السادة الرؤساء تنطلق اليه بغريزتها الروحية ، وتحسه تمام الاحساس بالوجدان والمشاعر ، وتلمس فيه الحصن الأمين والركن الشديد الذى تأوى اليه اذا ما عصفت العواصف واقترب اليأس من النجاة ، وتجد عنده المواساة وقوة التحمل والسلوى حيث تعز عند البشر المواساة . والفطرة الانسانية لا يقف اتجاهها الى الدين الإلهى وانطلاقها اليه عند حد الغريزة والوجدان والمشاعر والأحاسيس ، وشرح الصدور بالاسلام بل يتجاوز هذا الى ما هو أسمى وأقوى ، وتهتدى الى هذا الدين بنور ما ركب فيها من العقل وقوة التفكير ، عظم نصيبها من ذلك أو ضئول ، وبما أرشدت اليه من التدبر والتأمل فيما نصب لها من الدلائل ، وفيما حولها من آيات الله التى أراها الله سبحانه لعباده فى الآفاق وفى أنفسهم وفى ملكوت السموات والأرض ، واذ ذاك تفهم سر الحياة وتتذوق معناها وتعرف البداية والنهاية ، فلا تبقى حياة تافهة لا طعم لها ولا لون .

ولا ريب فى أن الانسان انما يكون إنسانا بروحه أكثر ما يكون إنسانا بجثمانه ولهذه الروح عالمها الإلهى الذى وفدت منه ، ولها حنينها وشوقها الدائم اليه ، الذى يتحرك بخطوات الاحساس وتوالى الأحداث ، ويدفع المرء الى غايات الكمال مهما كانت حجب المادة ومهما كانت أفاعيلها ، فهو مسوق بغريزته الى معرفة ربه والى الإيمان به وأتباع دينه ، واذا رجعنا الى ماضى الانسانية عرفنا أن الانسان منذ نشأته قد جعل الايمان اشفق من يسليه فى مصائبه ، وأرأف من يعزيه فى نوائبه ، فكم من فؤاد موجع بكارثة لولا الايمان لا نفطر . ولن يهبط بالسكينة والطمأنينة على نفس من كان عزيز قوم فذل أو غنياً فافتقر غير ايمانه بأن معه من يعلم السر وأخفى وهو وحده القادر على أن يمده بالعون فى شدائده ولن ينزل بروح الصبر والتسلى على فؤاد أم فقدت وليدها فى ريعان شبابه سوى ايمانها بأنه أصبح وديعة لها عند خالقه ، وهكذا كلما تدبرنا حدثا من الأحداث أو نازلة من النوازل

وجدنا أن الايمان بالله هوصخرة النجاة ، وانه لازم من لوازم الانسانية ، وحاجة من حاجات هذه الحياة ، من فقده فقد طيب الحياة ولو ملك الدنيا بيمينه ، ومن وجده فقد ظفر براحة الأبد .

ومع الغريزة الروحية ، والوجدان والمشاعر ، يكون نور العقل ومنطقه ، والهداية الإلهية ، وارشاد الرسل ، فتتكامل عناصر الفطرة الانسانية ، وتكتمل قوتها ، وتنطلق إلى بارئها وإذ ذاك يكون الإيمان الصحيح واعتناق الدين الحق ، أثراً من آثار الفطرة الإنسانية ، وذلك ما ارتضاه الله جلت حكمته لعباده وقررته آى الكتاب الكريم فى مواطن كثيرة جداً ، يكفينى فى مقامى هذا أن أذكر بعض ما جاء فيه عن أبى الأنبياء وأبى المسلمين ابراهيم خليل الرحمن : (وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربى فلما أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال : ياقوم إنى برىء مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) .

وبهذا أيقنا أن السلام دين الفطرة ونستطيع أن نفهم حق الفهم قوله تعالى ذكره (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

الدين شرعة العليم الخبير

الضمير الروحي ، أو النفس الانسانية الباطنة ، النفس المطمئنة الراضية المرضية ، التي تنشر النور وصدق النظر ، وتقود إلى الخير ، وتقضي على النزوات الطائشة ، وتنأى عن السوء بكافة ضروبه ، وتكفل السعادة للفرد وللجماعة على السواء ، وهذا الضمير الذي لاتستقيم أمور الانسانية إلا بحياته ، لاشيء يبدئه أحسن إبداء ، ولا شيء يربيه خير تربية ، ولا شيء يقوم على حمايته أفضل من الدين الآلهي ، والإيمان بالله عز قدره وأتباع شرائعه والتزام حدوده ، فهذا هو العامل القوي والمهذب الكامل ، الذي لا يصيبه ضعف ولا يشوبه نقص ، فهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهو صخرة النجاة ، وهو الملجأ الأمين ، وهو فوق هذا شرعة عالم الغيب والشهادة الرقيب على عباده وهو على كل شيء شهيد يعلم السر واخفى ، ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو مع عباده اينما كانوا ، وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم اينما كانوا وما يعزب عنه من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا اصغر ولا أكبر ، يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون ، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم مافي البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

أما عباده فانهم لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، ومهما كان مبلغ علمهم فانه لا يعدو أن يكون علما ببعض ماجرى وما يجرى ولا يتجاوزه إلى علم ما سيكون الذي لا يستطيعون في شأنه إلا الحدس والتخمين ، ولا يكون مع هذا إلا علما بظاهر من الأمر وعلى قدر ضئيل وجد ضئيل وما مثله إلا كذرة في تلال من الرمال وقطرة من الماء في محيطات ، ومن حق هؤلاء على

انفسهم ألا يعرضوا عن شرائع ربهم إلى ما يضعون من التشريعات التي لا تقوم إلا على علم ضئيل هزيل .

وما شرعه الله تبارك اسمه لعباده هو شرعة الخبير بهذه العوالم جميعها ، الذي خلقها فأحسن خلقها ، ودبر أمرها أحكم تدبير ، يقوم على العلم بطبائعها وكل خصائصها ، وما يلائم كل نوع منها ، أما عباده فانهم لا يزالون واقفين حيارى مشدوهين أمام هذا الكون وأسراره التي لا تتناهى ، وعجائبه التي لا تنقضي ، وهم أعجز ما يكون مهما كان تقدمهم عن إدراك كنهه وفهم أسراره والوقوف على حقيقة ما ينبغي أن يكون ، وما ينبغي ألا يكون ، فحق عليهم ألا يغرهم الغرور وأن يخضعوا لما سنه لهم العليم الخبير .

وما شرعه الله عز قدره لعباده هو شرعة اللطيف بهم ، الذي كتب على نفسه رحمتهم ، وشرع لهم دينا يسرا لا عسر فيه ولا حرج ، ولم يكلفهم مالا يطيقون ، والله جل شأنه متنزه عن الظلم فهو لا يظلم الناس شيئا ، وهو متنزه عن الأغراض والغايات ، فشرعته على الدوام شرعة عادلة رحيمة لا تتأثر بأى غرض من الأغراض ، أما الناس فان الظلم شيم نفوسهم والقسوة مظهر من مظاهر قدرتهم ، وقل أن يصدر عنهم تشريع لا يظهر فيه أثر بين للاثرة ورعاية المصالح الخاصة للحاكم المستبد ، أو للحزب المتغلب أو لطائفة معينة ، فهذه المصالح هي التي تكون محل الرعاية ، وسيان بعد هذا أن يتحقق الصالح العام ، وأن يذهب ضياعا ، وشتان بين هذه التشريعات وتشريع العليم الحكيم اللطيف الخبير الذى لم يكن إلا لتحقيق المصالح العامة ولا تشوبه شائبة من هذه النقائص . وما شرعه الله جلت حكمته بعباده قسمان أحدهما ما يرجع إلي الإيمان بالله ، وتوحيده وصفاته وإلي البعث والجزاء وسائر العقائد الصحيحة ، وكل هذا لا يقبل تغييرا ولا تبديلا وقد جاءت به كل الرسل على تعاقبها منذ كانت الانسانية إلى أن انقطع الوحى الالهى ، وهو تشريع احتفظ بسيادته فى هذا العالم رغم ما كان من الاشراك والوثنية ، رغم تيارات الزندقة والالحاد والمادية ، وإذا فشا نوع من هذه الضلالات فان العالم لا يلبث أن يفيق من غمرته ويستعيد صوابه .

أما القسم الآخر فهو شرائع الاحكام ، وهذه الشرائع الالهية قد سايرت

الانسانية فى نشأتها وفى طفولتها وفى سائر الأطوار التى مرت بها ، حتى إذا تم نضجها وبلغت أشدها وبلغ العقل البشرى مابلغ من القوة أكمل الله شريعته فأتم نعمته على الناس ورضي لهم الاسلام دينا إلى آخر الدهر .

وهذا التشريع وقد أراد الله جلت حكمته أن يكون تشريعاً ثابتا للناس كافة كان لابد أن تكون النظرة فيه إلى الأشياء مختلفة باختلاف طبائعها وما يمكن أن يطرأ عليها ، فاما ما شأنه ألا يتأثر كثيرا باختلاف الأقاليم والبيئات ، والأعراف والعادات وما يجد من الظروف والأحداث فقد قرر هذا التشريع أصول مسائله ، وفصل أحكامه تفصيلا وافيا ومع هذا كان تفصيلا يفسح الطريق للاجتهاد بقدر . وذلك كنظام الدولة ومواردها والزواج والطلاق والوصايا والمواريث ، والجريمة والعقاب ، والعبادات .

أما ما من شأنه أن يتأثر تأثيرا ملحوظا باختلاف الأصقاع والبيئات والأعراف والعادات (وما يحدث من تطورات العيش والحياة) فهذا وضع له القواعد الكلية المرنة التى تصلح لكل زمان ومكان ، وتتسع لحاجات الناس جميعاً ، وتفتح للاجتهاد فى هذه الأمور أوسع الأبواب (وبعد انقطاع الوحى الالهى افرغ الأئمة المجتهدون جهودهم فى مواطن الاجتهاد ، واستنبطوا من الأحكام ما شاء الله ان يستنبطوا ، وكان بينهم فى هذا اختلاف شأنهم فى هذا شأن الدارسين والشارعين ، ثم جاء من بعدهم الفقهاء المجتهدون فى المذاهب وأهل التخريج ، واصحاب الوجوه ومن إليهم فسلكوا طريق السابقين، وأدوا واجبهم أحسن الاداء ، وقد دام هذا قرونا متطاولة ، وعاصر الشدة والرخاء ، والحضارة والتأخر ، والسيادة بكل ضروبها والاستعباد بجميع ألوانه .

ومن هذه الاحكام وما استنبط المجتهدون كله كانت لنا ثروة تشريعية عظمى لا مثيل لها وإذا أحسن الإختيار منها فى أى بلد كان فيها أيسر حل لمشاكله ، وانجع دواء لأمراضه الاجتماعية وأعظم كفيل بتحقيق مصالحه على أكمل وجه ، ولا يعوقها عن الوفاء بكل هذا أى عائق من أحكامها ، ولقد حكمت فى ازهى عصور التقدم الاجتماعي والخلقي فما قصرت بأهلها ولا تخلفت بهم عن ركب الحضارة ، أقول هذا تذكرة لمن يؤمنون بالله وكتابه الكريم وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من تعاليم فان الذكرى تنفع المؤمنين .

الفصل الثانى

المنهج الاسلامى

الإيمـــــــان

لامنجى ولا ملجأ للانسان فى هذه الحياة إلا نفسه القوية الصافية المطمئنة وقواها الروحية الخيرة ، فهى وحدها التى تنجيه من المهالك ، وتقيه الانزلاق فى منزالق الرذيلة ، والتردى فى مهاوى الشرور والآثام ، وتحول بينه وبين طغيان المادة وإغرائها وتحسن توجيهه فى جميع المناحى ، وهى خير هاد يهديه فى كل ما يأتى وما يذر مع نفسه ومع خالقه ومع أسرته ومع مختلف الأفراد والجماعات. ولن ينال الانسان من كل هذا حظه الأوفر إلا من طريق الدين السماوى ، الدين الالهى الذى ارتضاه العليم الخبير لعباده فهو كما فصلت خير مرب ومهذب للنفوس ، وافضل مصقال يصقل الأرواح ، وأقوى حارس يقوم على حراستها فى جميع أطوارها ، وليس كمثله فى هذا أية وسيلة من الوسائل الأخرى التى عرفها الانسان ، إذ هو الملائم لفطرته ، يصل الى قلبه فى يسر وسهولة وتخالط بشاشته نفسه وينشرح لهصدره أسرع ما يكون ويركن اليه ويذعن له فى ثقة واطمئنان ، وهو كذلك أقوى هذه الوسائل بمصدره ، فهو من الله العليم الخبير اللطيف بعباده . ولا تقف قوته عند ملاءمة الفطرة وقوة المصدر ، بل أقوى ما يكون أيضاً بمنهاجه الحافل . فالمنهج الاسلامى منهج قوى وعام وشامل ، جاء بالتوحيد والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبما لله عز قدره من صفات الكمال ، ونزل بشرائع الاحكام التى تنظم خير تنظيم علاقة الانسان بربه ، وبأسرته ، وبدولته ، وبسائر الافراد والجماعات ، وجاء ليخرج الناس من الظلمات الى النور وليغرس مكارم الأخلاق ويربيها ، وليحارب الرذيلة بكل ما فيه من قوة ، وليرقى بالانسانية ويهديها إلى كل ما فيه خير لها ، ولم يقصر فى شىء من هذا ما قصر الاخلاقيون وما قصرت الشرائع الوضعية ، وتناول هذا المنهاج ما لايستقل العقل البشرى بادراكه وطريق الوصول اليه ، وكانت له أصوله الراسخة وفروعه الباسقة وظلاله الوارفة ، وثماره الشهية الناضجة .

وأول أصول هذا المنهاج وأساسها الراسخ هو الإيمان بالله وحده وبعظيم قدرته وبكل ماله من صفات الكمال ، فمن شرح الله صدره بهذا الإيمان واشرقت نفسه بنوره وخالطت بشاشته قلبه وادرك أن الله جلت قدرته هو القاهر فوق عباده ، بيده الملك وحده وهو على كل شيء قدير ، صفت نفسه ايما صفاء ، وقويت روحه اشد قوة ، وقاوم المادة وإغراءها ، واتجه بكل قواه إلى الملأ الأعلى ، الملأ الذى وفدت منه روحه ثم هى راجعة اليه طال الأمد أو قصر ، فلا يعبد إلا بارئه ، ولا يلتمس إلا هدايته ، ولا يستعين إلا به ، ولا يذل إلا له ولا يعفر وجهه لسواه ، واذ ذاك يجد نفسه كما أراد الله أن تكون ويسعى جاهداً فى مرضاته ، يمتثل أوامره ، ويجتنب نواهيه ، ويتحلى بمكارم الأخلاق وينأى بجانبه عن الرذائل والآثام ، ويعمل لخير الانسانية ما وسعت طاقته ويبذل ما فى استطاعته لنصرة الحق وتأييده ، وفى محاربة الباطل والقضاء عليه ، موقنا بأن الله لا يخذله ، وأنه ناصره ومؤيده ، أن أبطأ عنه نصره أحياناً فإنه آت لا ريب فيه ، ومن هذا تغمر نفسه أمواج متلاحقة من العزة والكرامة ، والنصفة والاستقامة وحب الخير ، ويكون فى أرقى درجات الانسانية . وليس لأى متدبر منصف أن يترقب الوصول الى تلك الخلال ولا الظفر بتلك الآثار من طريق العقل البشرى المجرد مهما بلغت قوته ولا من الأخلاقيين وتعاليمهم ولا من الوضعيين وشرائعهم وانما طريقها الوحيد هو الايمان .

ولا جدال فى أن الإيمان عقيدة قلبية باطنة يعبر عنها اللسان ويظهرها للآخرين ولنوع ما دار من الجدل حول حقيقة وكون العمل جزءاً منها أولا ، غير أنه لاريب فى أن أصل الإيمان كأصل الشجرة العظيمة التى تكون لها فروعها وأوراقها وثمارها إذا كملت لها هذه الأشياء كانت شجرة كاملة وارفة الظلال طيبة الثمر عميقة النفع محققة لكل ما يرجى منها وكذلك الإيمان إذا اقترن أصله بصالح الأعمال أما إذا فسدت الثمار وتحاتت الأوراق وتساقطت الفروع فإنها تكون عوداً أملس وكذلك يكون شأن الايمان إذا لم تصحبه الأعمال الصالحات ويكون على درجة متفاوتة بتفاوت ما يكون معه من أعمال البر والخير وكلما يكون نفع الانسانية فى الأولى والآخرة وإنا لنحس هذا ونلمسه فى العناية البالغة التى عنى

بها الكتاب الكريم فى إيراد الإيمان مقترنا بالأعمال ، وفى الأوصاف العملية التي يصف بها المؤمنين (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) (قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا علي أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) .

ورسول الله ﷺ يقول : الإيمان بضع وستون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق ويقول : الحياء شعبة من الايمان ويقول : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . ويقول : لا يؤمن أحدكم حتي يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

العلم

إذا كان الإيمان هو عماد الدين وقطب راحة، وحجر الأساس فى المنهج الإسلامى فإن مما يجيء فى أعقابه وله المكانة العظمى فى هذا المنهج محاربة الجهل فى جميع البيئات ونشر العلم بين جميع الطبقات، والنهوض بالتعليم والتعلم نهضة شاملة لا هوادة فيها، فالعلم هو معراج الرقى والحضارة الإنسانية، وهو السبيل الوحيد للسعادة، فى الدنيا والآخرة، وما كرم الله عز وجل الآدمى وفضله على كثير ممن خلق بضخامة بدنه وعظم جسمه، فكم من حيوان أعجم هو أعظم منه جسداً وأضخم منه جثة، وما فضل ولا كرم بما آتاه من القوة فكم من دابة هى أشد منه قوة وأعظم منه، وما فضله ولا كرمه بما لديه من شجاعة وإقدام فسباع الحيوان وكواسر الطيور أعظم منه شجاعة وأكثر إقداما وما فضله ولا كرمه، وما سخر له ما حوله من المخلوقات وما يحيط به من الكائنات إلا بما حمله من أمانة العقل والنطق، والفهم والإدراك، وما يسر له من وسائل العلم والمعرفة فأخرج الناس من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة لتكون أدوات علم ومعرفة، وأراهم آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ونصب لهم فيما حولهم أعظم الدلائل ليزدادوا علما، وشرع لهم شرائع الأحكام، وأرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهداة معلمين ليتم لهم نور العلم والمعرفة، وليرقوا إلى درجات الكمال وليظفروا بأعظم قسط مستطاع من الحضارة، فمن أعرض عن سبيل ربه ونأى عنها بجانبه بقى مغموراً فى ظلمات الجهل، يخبط خبط عشواء، إن أصاب مرة أخطأ المرات، وما تكون إصابته إلا بمحض الصدفة، فهو يجهل ولا يعلم، ولا يهتدى لنفع ولا لضر ولا يحسن أن يفكر ولا أن يقدر، وإن هو إلا كالأنعام بل أضل سبيلا، وهو من شر الدواب كما قال العزيز الحكيم (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) والويل كل الويل لمجتمع يسوده الجهل، فهو فى طوفان من الفوضى والاضطراب، ولا تصان فيه حقوق ولا تعرف واجبات، وكل روابطه

وسائر أموره فى انحلال، وهو فريسة الأعداء والطامعين ولا مصير له إلا الاستعباد والفناء ، أما من اهتدى بهدى بارئه وسلك سبيله السوى فإن نفسه تشرق بنور العلم والمعرفة ، (تصفو روحه أتم الصفاء ، وتقرب على الدوام من ملأها الأعلى ، فيعرف نفسه وربه ، حق المعرفة ، وينشرح بالإيمان صدره ويلتزم مكارم الأخلاق وحدود الله ، ويعرف ماله من الحقوق وما عليه من الواجبات ، وبه وبأمثاله رقى المجتمعات ، ولما ذكرت من المعانى وما ألم به كانت عناية المنهج الإسلامى بالعلم والتعليم أعظم عناية .

وقد أعظم الكتاب الكريم شأن العلم وأهله وأمتن به على عباده ، كما فرض التبليغ والتعليم ولعن من يكتمون العلم ، أما السنة النبوية الصحيحة فزاخرة بهذا وبغيره ، وقد كان أول ما بدىء عليه الصلاة والسلام من الوحى ونزل من القرآن قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم) ثم تتابع نزول الكتاب الكريم وفيه الكثير من الآيات التى تمتن بالعلم وتعظم من شأنه وشأن الله له فيقول جل شأنه (خلق الإنسان علمه البيان) ويقول تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لايعلمون) وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) إنما يخشى الله من عباده العلماء (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) . ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « العلماء ورثة الأنبياء » ويقول : عليه السلام . . للأنبياء على العلماء فضل درجتين وللعلماء على الشهداء فضل درجة . ويقول : سبحانه فى شأن التبليغ والتعليم (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك فإن لم تفعل فما بلغت رسالته .) ويقول جل شأنه (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) . وقال صلى الله عليه وسلم (نعمت العطية ونعمت الهدية كلمة حكمة تسمعها فتنطوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة . وقال عليه الصلاة والسلام بعد ما علم من الأحكام ، إلا فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، إلا هل بلغت اللهم فاشهد . . وقال : نضر الله امرأ سمع منا حديثا فأداه عنا كما سمعه وقال : لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله فسلطه علي هلكته فى الحق

ورجل اتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها . وقال من سئل علما عليه فكتمه جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار ، وفضل عليه الصلاة والسلام الجلوس مع المعلمين والمتعلمين على الجلوس إلى جماعة المتعبدين الداعين وقال : وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل . . وإنما بعث .

وقال عليه الصلاة والسلام فى شأن المتعلم : وما من رجل يسلك طريقا يلتمس فيها علما إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنة ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه . وكان من فداء أسارى بدر أن يعلم الأسير القارىء عشرة من المسلمين ، وكان عليه الصلاة والسلام العالم الأول يعلم فى المسجد وفى البيت وفى الطريق وفى كل مكان ، ويعلم الرجال والنساء وجعل لجماعتهن يوما يأتي فيه لتعليمهن ، ولم يكن التعليم قاصراً علي طبقة دون طبقة فهو تعليم شعبي الكل فيه سواء .

ولقد سرت هذه الروح فى أصحاب رسول الله وفى سائر المسلمين فملأوا الآفاق علما وكانوا القادة المعلمين المرتقين بالانسانية من حضيض الجهل إلى أرقى درجات العلم فى شتى العلوم والفنون والآداب ، فكانوا بحق أساتذة الإنسانية والعلم والمعرفة .

والمنهج الإسلامى منهج دينى يعنى عن أن الاسلام دين جاء بما يحقق مصالح العباد فى الدنيا والآخرة ودعا إلى أن يعمل المرء لدنياه كأنه يعيش ابدا وأن يعمل لآخرته كأنه يموت غداً . فما يدعو إليه هذا المنهج من العلوم والتعليم شامل للعلوم الشرعية وغير الشرعية ، ففرض على امرىء أن يتعلم من العلوم الشرعية ماتصح به عبادته ومعاملاته مع الناس ، ومن غير الشرعية ما يحتاج إليه فى تدبير رزقه وقوام حياته .

إما تعلم ما زاد على ذلك فانه من فروض الكفايات التى إذا قام بها البعض سقط الواجب عن الباقين ، وإذا قصرت الجماعة فيها أثمو جميعاً . ففرض علي كل جماعة ان يكون من بينهم عالمون بالعلوم غير الشرعية كالطب والحساب وأصول الصناعات كالفلاحة والنسخ والخياطة وغير ذلك العلوم والفنون والصناعات التى يؤدى ضياعه إلى تأخر المجتمع ووقوعه فى الحرج والأصل فى كل هذا الدال عليه بمنصبه ومنطوقه أو بروحه ومعناه قوله تعالي ، (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون . .

الزهـــــــد

الزهد بمعناه السليم الصحيح الذى لا يتجاوز حد القصد والاعتدال فى الطلب وفى المتعة بمباهج هذه الحياة وزينتها ، ولا يخرج عن إطار الموازنة بين مطلب الروح ومطالب الجسد وإعطاء كل منهما حقه المشروع الذى ترضاه العقول المتبصرة حيث لا يكون فى ذلك وكس ولا شطط . أن العليم الخبير جلت حكمته ليعلم أن هذه الحياة الدنيا حياة أساسها المادة وهى موطنها وأن الروح قد وفدت اليها مقتربة من ملأها الأعلى ، ويعلم جل شأنه ما للمادة من سلطان وإغراء ونزوات ، وما لها من أعوان ، فلم يضيع عباده ، ولم يتركهم سدى وانزل اليهم هدايته وتعاليمه التى تحذرهم من عواقب الأفراط والتفريط ، وتدعوهم الى ما يقيم سيئات المادة وآفاتها قد ماهم فيما دعا اليه الى الزهد لا بمعنى بفض الحياة الدنيا والابتعاد عما فيها ، ولكن بمعنى التزام حد القصد والاعتدال فى طلب ما فى هذه الحياة وعدم الإغراق فى الاقبال على ما فيها من المتع واللهو واللعب وتحصيل الوسائل التى تكفل لهم ما يريدون الى حد يذهب بما للحياة الروحية من الحقوق ويلهى عن ذكر الله وتباعد ما بين المرء وعبادة ربه وأداء ما للروح من الحقوق . يرشد الى كل هذا قوله تعالى ذكره « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » إعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون » « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وإذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا اليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . وقول رسول الله ﷺ أن الدنيا حلوة خضرة

وان الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعلمون . فمن وفر لروحه الغذاء الصالح ولم ينس نصيبه من الدنيا فقد ظفر بالخيرين وكان من الزاهدين وآن كثر ماله .

ودعا الى الزهد لا بمعنى تحريم الحلال واجتناب الطيبات من الرزق والتزام شظف العيش وخشونته مع القدرة علي ما هو خير فيه « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . ولكن بمعنى القصد والاعتدال فى التمتع بطيبات الرزق واجتناب الأفراط فى الترف والتنعيم الذى تقويه القلوب ، وتتسلط به نزوات المادة وتحرم الروح من لذائذها ، والابتعاد عن الاسراف والتبذير المقوتين ـ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا إنه لا يحب المسرفين ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ولاتبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ـ ويقول ﷺ : الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقها بارك الله له فيها ورب متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار .

ودعا الى الزهد بمعنى القناعة والرضا بما آتاه الله لعبده وأن قدر عليه رزقه ، فالنظر الى مافى فى ايدى الآخرين ليس من ورائه إلا الحسرة والسخط والحقد والحسد ، وكثيراً ما يدفع المرء الى ما هو شر من ذلك ، ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ومن مد عينيه الي زينة المترفين كان ممقوتاً فى ملكوت السموات والأرض ومن صبر على القوت الشديد صبراً جميلا أسكنه الله من الفردوس حيث شاء .

على هذه المعانى وأشباهها يدور معنى الزهد الذى دعا اليه الدين الاسلامى ومقاصده منه واضحة جلية ، غير أن من الناس من جهل الدعوة الاسلامية البينة المعانى والمقاصد فضل سواء السبيل وانحرف بالزهد عن معناه ، وزعم أنه لا يكون إلا باجتناب الطيبات من الرزق وتحريم كل ما فيه زينة ومتعة ، والفرار من المال وإن كان من أطيب الطيبات ، والقعود عن طلب الرزق والتفرغ للعبادة

وأن ضيع أهله وولده ، واجتناب النساء ، فيدل بذلك أحكام الله وحـرم على نفسه ما أحل الله له وقطع الأرحام وضيع الحقوق وجفا الأنام واكفهر وجهه للأغنياء ، وتجاهل أن رسول الله ﷺ ، وهو قدوة الزاهدين ، كان يتمتع بشهى الطعام ويلبس جميـل الثياب وكان الطب من أحب الأشياء الى نفسه ، كما تجاهل ما كان عليه كثير من اصحاب رسول الله ﷺ فى عصره من الثراء وكان فى طليعتهم عثمان بن عفان وعبـد الرحمن بن عوف اللذان قيل فيهما أنهما كانا خزانتين من خزائن الله فى أرضه ينفقان فى طاعته ، أن هذه النزعة الممقوتة التى جرت علينا ما جرت فى القديم وفى الحديث ليست إلا محادة لأحكام الله ومقاصد شرائعه وليست الا ورعاً بارداً وتنطعاً فى الدين .

الفصل الثالث

المعاملات الاسلامية

المعاملات الاسلامية

المنهاج الاسلامى ليس منهاج آخرة فحسب ، وليس منهاج دنيا فحسب وإنما هو منهاج جامع شامل ، لم يقف عند صلة العبد بربه وما يتصل بذلك من تهذيب أخلاقه وتجاوز هذا إلى جميع شئون الحياة وتغلغل فى تفصيلاتها وشرع لها ما يكفل للمجتمع وصوله إلى أرقى ما يستطاع من الكمال فى هذه الحياة . فتناول صلة المرء بأصله وولده وسائر أعضاء أسرته قريبهم وبعيدهم ، وشرع لذلك أحكم الروابط ، وسن له أفضل المعاملات ، التي يحيط بها إطار عظيم من الرحمة والشفاق ، والثقة المتبادلة والتعاون تزينه مكارم الأخلاق ، وتناول صلته بمن يجاوره وكل من يخالطه وتقضى دواعى هذه الحياة بأن تكون له معاملة معه ضاق نطاقها أو اتسع ومن أى نوع كانت ، وشرع لذلك أفضل الشرائع التى تكفل المصالح وتقضى علي الفاسد ، وتبين الحقوق والواجبات . وتقرر العدالة التامة فى المعاملات المادية والأدبية على السواء ، كما ميزت بين الحلال والحرام وما بينهما من متشابهات ، وسنت أعدل الجزاء وافضله من الثواب ومن العقاب فى هذه الحياة وفى الآخرة .

وتناول هذا المنهاج الصلة ما بين الحاكمين والمحكومين ، وبين ما لكل من الحقوق وما عليه من الواجبات ، وسار بالدولة فى كل جماعة على منهج واضح المعالم وعلى الصراط المستقيم .

وتناول هذا المنهاج شئون الانسانية نفسها ، واتجه بها الاتجاه الذى يكفل خيرها وسعادتها . فمعاملة الانسان لربه ومعاملته لنفسه ، ومعاملته لغيره ، من الأفراد والجماعات ومعاملته لدولته ومعاملة دولته له ، ومعاملة الجميع نحو الانسانية كل أولئك قد تناوله المنهاج الإسلامى فى أوسع نطاق . وفصل أحكامه . وجاء

فيه بمجموعة نقية محكمة هى شرعة العليم الخبير. التى جمعت أحكامها بين الحقوق الروحية الأدبية والمادية . . ولايخلو أى حكم منها وإن كان من أحكام العبادات من الجمع بين حقوق ثلاث . حق الله سبحانه وتعالى وهو إطاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه والانقياد لتعاليمه . . .

والحق العام ، وهو الحق الذى يعود نفعه إلى المجموع ، والحق الخاص وهو ما يعود نفعه إلى كل فرد بخصوصه .

وهذه المجموعة من الأحكام مجموعة مترابطة متناسقة متكاملة ، يجب أن تحكم جميع المعاملات ، وأن تخضع لها ككل وإلا يقطع أوصالها .

أما إذا آمنا ببعض منها دون البعض الآخر ، واتبعنا طرقا منها ونبذنا سائرها فاتنا بهذا الصنيع نشوه جمالها ونمزق أعضاءها . ونذهب بروحها ، ونفتح أبوابا واسعة لمن شغف بتلمس العيوب ، وحرص على أن يبدى فيها ويعيد ، ثم لامناص لنا إذ ذاك من الاضطراب والخضوع لمجموعة متناقضة من الأحكام لا تربطها روح واحدة وهى أشبه شىء بمفرقعات الثياب التى يرتديها بين ظهرانينا من نطلق عليهم المجاذيب .

هذا إلى ما يصيبنا من خسارة كبرى . هى القضاء على الوازع الدينى وموت الضمير الروحى الذى لا يعد له أى ضمير آخر ، ولا نصغ إلى قول من يقولون فلندع لرجال الدين تربية الضمير الروحى وحراسة الوازع الدينى ولنساير ركب الحضارة ولنكن من أهل المجتمع الحديث ، ولتحكم معاملاتنا أحدث الشرائع الوضعية فإن ذلك خير لنا وفيه جمع بين الأفضلين ، ولا نصغ إلى هذا وأشباهه فإنه ليس إلا زخرفا من القول وتمويها إذا نظر إليه أدنى نظرة فاحصة بأن عواره وذهب هباء منثوراً . .

وأما قولهم فلندع لرجال الدين تربية الضمير الروحى وحراسة الوازع الدينى إلا تقليد أعمى لقوم آخرين افتتنوا بعالمهم اليوم من سلطان وغلبه . وماهم عليه من قوة مادية جافة وهم قوم لاتعنيهم الحياة الروحية بقدر ما تعنيهم الحياة المادية المجردة ، ولم تكن بلادهم يوما من الأيام مهد دين إلهى ولا موطن وحى سماوى

ولما جاءهم دين الله الحق استجاب له من استجاب على مهل وتردد ثم أبت عليهم طباعهم إلا أن يتحللوا من أحكامه ما وجدوا لذلك سبيلا ، ثم انقلبو إلى مهد الديانات ومهبط الوحي السماوى ليفتنو أهله فى دينهم ليسهل عليهم تفريق كلمتهم وتمزيق وحدتهم فيسهل عليهم استلاب ديارهم واستعبادهم وامتصاص جهودهم وأموالهم . .

على أن هذا القول إذا أمكن أن يقال بأزاء منهاج ، اقتصر على صلة العبد بخالقه وما يتصل بها من مكارم الأخلاق لا يمكن أن يقال بأزاء منهاج دينى جامع تناول كل شئون الحياة ووضع أحكاما لجميع أنواع المعاملة إذ لا سبيل إلى تربية ضمير ولا حراسة وازع من أحد إذا فرقت هذه الأحكام . فمن آمن ببعض الكتاب وكفر ببعضه وألفت نفسه الخروج على شىء من أحكامه علانية وفى غير مبالاة رأن على قلبه ما كسب وتراكم الصدأ على نفسه ، وتزعزعت عقيدته ، واعتل ضميره الروحى ومات وازعه الدينى ولن تنفع معه الوسائل الأخرى كائنة ما كانت ، فإن التمرد على الدين ومخالفة أحكامه قصداً أشبه شىء بالمنحدر الأملس إذا وقعت الأقدام على بدايته لا يمكن أن تثبت حتى تصل إلى نهايته .

أما الحديث عن الحضارة وركبها وهى أحدث التشريعات والأخذ بها فليس إلا تنكسرا للحق وإنكار الحقائق الثابتة ، فالمنهاج الاسلامى منهاج حافل وغنى بالأحكام التى جاء بها القرآن الكريم ، والتى وردت بها السنة النبوية ، والتى استنبطها الأئمة المجتهدون وهو منهاج عاش قرونا متطاولة لم يمسها سوء ، وطوف الآفاق شرقا وغربا وشمالا ، وجنوبا وعاصر الرخاء والشدة وحكم فى أزهى العصور فما قصر عن حاجة ، وما كان يوما ما عقبه فى سبيل التطور والتقدم ، وما تخلف بأهله فى أى حين عن ركب الحضارة . . وما كان هذا الحديث إلا مغالطة مكشوفة وتجنبا سافراً . . والله المستعان على ما تصفون .

حرمة الانسانية

جاء الاسلام بأحكم الشرائع وأفضل الأحكام والتعاليم التى تكفل للأفراد والجماعات صالح التربية وتسير بهم سيرا حثيثاً فى طريق الكمال والتهذيب ..

وفى طليعة هذه التعاليم الحكيمة احترام الانسانية وإيفاؤها كل حقوقها وتكريمها اينما حلت وكائنا ما كان الانسان ، ففرض على كل امرىء أن يؤمن بأن الناس سواسية فى انسانيتهم كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على الآخرين إلا باعماله الصالحة التى يعود خيرها إلى الانسانية فى هذه الحياة الدنيا وفى الآخرة ..

حقا أن الله جلت حكمته قد فضل بعض عباده على بعض فى الرزق فكانوا طبقات فى الثراء والنعمة وفى الأخلاق والأعسار .. حقا انه سبحانه جعل الناس طبقات فى احسابهم وأنسابهم ، وجعلهم طبقات فى القدرة والضعف ، وفى الجاه والسلطان ، فكان منهم الأحرار والأرقاء ، وكان منهم الحاكمون ، والمحكومون ، وكان منهم الأقوياء والمستضعفون ، كما جعلهم عظمت قدرته شعوبا وقبائل مختلفة اجناسها وألوانها ، فكان منهم الأبيض والأسود .. والأحمر والأصفر .. كل ذلك قد كان كما كان سواء ، ولكن التفاوت بين الناس فى شىء من ذلك مهما كان أمره لا يقضى بالتفاوت بينهم فى الانسانية ، ولا يبرر انتقاض شىء مما لها من التكريم وسائر الحقوق ، وما التفاوت بينهم إلا بالأعمال الصالحة التى تكفل للانسانية سعادتها .. بهذا نطق الكتاب الكريم ، ووردت السنة النبوية الصحيحة ، وعليه درج صالحو المؤمنين فى مختلف العصور .

فالله تبارك اسمه يقول فى كتابه الكريم (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا .. فالله جل شانه انما كرم فيهم الآدمية والانسانية ، فلم يستثن من أهلها أحدا ، ولم

يخص منهم سيدا من مسود ، والأغنياء من فقراء . . ولا حرا من رقيق . . ولا أبيض من أسود وأحمر وأصفر ، بل الكل فى هذا التكريم سواء ما اقاموا على الوفاء لانسانيتهم وأداءمالها من الحقوق ، ويقول تعالى ذكره (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم أن الله عليم خبير) فالله جل قدره إنما أراد من الناس جميعاً أن يتعارفوا فيتآلفوا على سواء وأعلمهم أنه لا تفاوت بينهم فى الكرامة هذه إلا بالتقوى وما التقوى إلا بالأعمال الصالحة التى تكفل للانسانية سعادة الدارين .

وقال رسول الله ﷺ : المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره .. التقوى ههنا . . ويشير إلى صدره ، بحسب أمرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم . . كل المسلم على المسلم حرام . . دمه وعرضه وماله . . وقال ﷺ : لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعاله حسنا ، فقال ﷺ : أن الله جميل يحب الجمال . الكبر بطر الحق ، أى دفع الحق ورده .. وغمط الناس اى تحقيرهم وأزدراءهم .. وخطب ﷺ أوسط أيام التشريق فقال : أيها الناس إن ربكم واحد وأن أباكم واحد ، الالافضل العربى على اعجمى ولا لعجمى على عربى ولالأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى إن أكرمكم عند الله اتقاكم ، الا هل بلغت ، فقالوا . بلى يارسول الله قال فليبلغ الشاهد الغائب . .

وليست الدعوة إلى تكريم الانسانية والوفاء بحقوقها قاصرة على ما يكون من المعاملة بين الأحرار بعضهم مع بعض بل هى دعوة عامة تشمل الأحرار والرقيق على سواء ، فقد أعلن ﷺ الأحرار بأن خولهم من الرقيق اخوانهم وأمرهم أن لا ينادوهم بما يؤذى انسانيتهم كقولهم ياعبدى يارقيقى كما أمرهم أن يطعموا رقيقهم مما يأكلون وأن يسقوهم مما يشربون ، وأن يحسنوا إلى الانسانية باحسان معاملتهم والرفق بهم فلا يكلفوهم مالا يطيقوق . .

وليست الدعوة إلى تكريم الانسانية والوفاء بحقوقها قاصرة على ما يكون من المعاملة بين معروفى الانساب بل هى دعوة عامة تتناول معروفى الانساب . . ومنقطعى الأنساب على السواء . . فمنقطع النسب ليس إلا آدميا له ولغيره إله

واحد وأب واحد ولإنسانيته كرامتها كالتى لسواها .. والله جل قدره يقـول : فى شأن الأدعياء (فان لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم)

وليست هذه الدعوة قاصرة على ما يكون من المعاملة بين المسلمين أصحاب الدوله بل هى عامة فتناولهم متناول كل مـواطن لهم وإن كان على غـير دينهم . فالمواطن غير المسلم له آدميته وانسانيته وأن لهذه الانسانية ما لسـواها من التـكريم والحقوق ..

ولغير المسلم فى دار الاسلام بمـا له من عهد وذمة ما للمسلمين من الحقوق وعليه ما عليهم من الواجبات . . ورسول الله ﷺ يقول : من ظـلم معاهدا أو انتقصة أو كلفه فوق طاقته ، أو أخذ منه شـيئا بغير طيب نفس فانا حجيجه يوم القيامة . .

هذا هو المنهاج الاسلامى ، وتلك هى تعاليمه الحكيمة فى تكريم الانسانية والوفاء بحقوقها بين الناس جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأديانهم وطبقاتهم . . وأن تعجب فعجب أمر هؤلاء الأقوام الذين لا يرضون عن هذا المنهاج وغيرهم ما أوتو من قوة مادية جافة فزعموا أنهم قادة ركب الحضارة بينما هم يمعنون فى امتهان انسانية السواد الأعظم من النـاس ، ويفرقون فى التفرقة العنصرية وآثامها وما تجره من المصائب والـكوارث على الأقطار التى ابتليت بهم .. فاللهم لطفا بعبادك يا أرحم الراحمين واكشف عن الانسانية هذا البلاء المبين . .

العمل والكسب

المنهاج الاسلامى منهاج دين ودنيا ، منهاج معاش ومعاد ، ما ترك رابطة من الروابط ولاصلة من الصلات ، إلا تولاها بأفضل الرعاية ، ولا ناحية من نواحى الحياة إلا نظم شئونها خير تنظيم ، فضلا من الله ونعمة على عباده ، ليبين لهم الصراط المستقيم ، ويهديهم إلى سبيل الرشاد ، ومما أولاه هـذا المنهاج أكبر عنايته شـئون العمل والكسب ، ففرض فيها وحرم ، وحبب وكره ، ورغب ورهب ، ليكفل للأفراد طيب الحياة ، وصالحها ، فى عزة وكرامة ، تصـون عليهم ماء الوجوه ، وتقيهم ذل السؤال . . وازدراء الآخرين ، وضجرهم . . وليكفل للمجتمع القوة والمنعة وييسر له أسباب الارتقاء ، والتقدم والحياة الكريمة الفاضلة ، وليمكن له فى الأرض ، وتنطبع فى النفوس هيبته ومكانته ، ففرض على كل قادر أن يعمل ويجد ويسعى فى الحصول على رزقه هو وأهـله وولده ومن تجب عليهم نفقته ، وإن قصر فى ذلك كان مضيعا لهم ، وكفى بالمرء أثما أن يضيـع أهله وولده ومن يعول ، وواجب على كل قادر أن يجد ويعمل ليؤدى ما عليه لدينه ولأمته من الحماية والدفاع وتوفير أسباب الخير والسعادة ، وعلى كل أمرىء أن يعمل جهد طاقته ماهو ميسر له وفيه خيره وخير دينه وخير أمته أى عمل كان . فليكن هناك الأمراء والولاة والقضاة الذين يعملون على تدبير أمور الرعية واستقامه أمورها واقامة العدل فيها ، وليكن هناك العالم والمتعلم الذين يشتغلون بالنافع من علوم الدين والدنيا لينشروا العلم والمعرفة وليرقوا بالأفراد والجماعات على سواء .. وليكن هناك التاجر والزارع والصانع ومن يعمل فى أى مهنة أخرى يعود نفعها إليه وإلى أمته ، ومن لم يكن ذا مال وأخـلد إلى البطالة والكسل وآثر الراحة على العمل ، فقد عصى ربه ، وضيع نفسه وذويه ، وتعرض لذل السؤال وتقبل الفضلات ولا نصيب له بين النـاس الا الاحتقار ، والسخرية ، والتبرم به والضجر منه وكان عيالا على غيره . ومن كان ذا نعمة

وأعرض عن الأعمال النافعة التى يستطيع القيام بها كان عضوا اشل فى مجتمعه ، وقل الا تكون عاقبة أمره الانغماس فى اللهو والشهوات والانحدار إلى الدرك الأسفل وضياع الدين والخلق والكرامة .

والله جل قدره قد أمر بالعمل والكسب وحض على السعى فى طلب الرزق وابتغاء فضل الله ، فقال جل شانه : (هو الذى جعل الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلو من رزقه واليه النشور) . وقال تعالى . فإذاقضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) . وراعى جلت حكمته الساعين فى طلب الرزق كما راعى المرضى والمجاهدين فى التخفيف من أعمال العبادة فقال جل شأنه . (فاقرأوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى . . وآخرون يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه) .

وقد أمتن الله سبحانه على عباده بأن يسر لهم أسباب العمل وأوقاته فى البر والبحر وطالبهم بشكر هذه الأنعم فقال تعالى : (ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش) (ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله أنه كان بكم رحيا) (وجعلنا الليل والنهار آتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم) .

وروى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال . لأن يحتطب أحدكم حزمة على على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه . وروى البخارى أنه عليه ﷺ قال : ما أكل أحد طعاما قط خير له من أن يأكل من عمل يده ، وأن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده . . وقال صلى الله عليه وسلم : أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأن ولده من كسبه . .

فى الحديث التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وفى الخير من طلب الدنيا حلالا تعففا عن المسألة وسعيا على عياله وتعففا على جاره لقى الله وجهه كالقمر ليلة البدر . . وقال عليه الصلاة والسلام : طلب الحلال جهاد . . وأن الله يحب العبد المحترف ـ وجاءه رجل من الأنصار فسأله فقال له صلى الله عليه وسلم أما فى بيتك شىء ؟ قال بلى ! ! حلس نلبس بعضه

ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه الماء، قال: ائتنى بهما، فاخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال: من يشترى هذين؟ قال رجل أنا آخذهما، بدرهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يزيد على درهم. قالها مرتين وثلاثا قال رجل أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، فأخذ الدرهمين وأعطاهما للأنصارى، وقال: اشتر بدرهم طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوما واتنى به، فأتاه به فشد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده ثم قال: اذهب فاحتطب وكل ولا أرينك خمسة عشر يوما ففعل وجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً، فقال له رسول الله ﷺ: هذا خير لك من أن تأتى المسألة نكتة فى جهك يوم القيامة..

وقد تقطع قوم فقالوا: إن العمل ينافى التوكل على الله فضلوا وحادوا عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وما جرى عليه السلف الصالح وقد لقى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ناساً من أهل اليمن فقال. ما أنتم؟ قالوا: متوكلون قال: كذبتم، انتم متآكلون، انما المتوكل رجل رجل التى حبه فى التراب وتوكل على رب الأرباب كما قال رضى الله عنه لا يقعد احدكم عن طلب رزقه وهو يقول اللهم ارزقنى فقد علمتم ان السماء لاتمطر ذهبا ولافضة، وقد سئل الإمام احمد رضي الله عنه عما نوه به هؤلاء اخذوا من قوله ﷺ. لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا، اى تذهب اول النهار ضامرة البطون من الجوع وترجع آخره ممتلئة البطون، فقال رضي الله عنه: ليس فى الحديث دلالة على القعود عن الكسب بل فيه ما يدل على طلب الرزق، اذا المراد انهم لو توكلوا فى سعيهم كما تسعى الطير لرزقهم الله كما يرزق الطير متى سعت فتغدو خماصاً وتروح بطاناً.

النـــواحى الاجتماعية

المنهاج الاسلامى قد اتجه بالانسان وجهة السداد والرشـاد ، وجهة سلامة القلوب وصفاء الأرواح ، وجهة الايمان الحـق ، والعقائد الصحيحة ، وتطهير النفوس من أدران الشرك والوثنية ، وجهـة الأعمال الصالحة والتحلى بمكارم الأخلاق ، والسعى الحثيث الى الـكمال الانسانى عن طريق العلم والمعرفة ، وكل ما يعود خـيره أولا ومباشرة الى المرء نفسه ، وذويه الأقربين وإن كان حظ مجتمعه عنه ليس بالقليل ، قد اتجه به ايضاً وجهة صالحة رشيدة .. وجهة أن يكون مواطناً صالحاً ، ولبنة سليمة قوية فى بناء المجتمع الذى يحيا ويتقلب فيه فسن له حكم الشرائع وبين له أفضل الخلال ، وهو على الدوام يذكر الناس بما بينهم من رابطة الاخوة ، فيما يتلى عليهم من كتاب الله تعالى ، ويروى لهم من سنة رسول الله ﷺ إخوة النسب ، وإخوة الدين ، وإخوة الوطن ، والاشتراك فى المصالح ، وإخوة الانسانية ، ويدعوهم الى اتباع ما تمليه هذه الاخوة من صفاء النفوس ، وسلامة الصدور ، والتعارف والتآلف ؛ والاحسان فى المعاملة والمعاشرة ، والتعاون على البر والتقوى، واجتناب الاثم والعدوان، والابتعاد عن انتهاك الحرمات والحقوق، فحرام على كل امرىء أن يعتدى على دم اخيه بقتل أو جراحة ، ومن فعل شيئاً من ذلك اقتص منه ، ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وحرام على كل امرىء أن يعتدى على عرض أخيه ، فلا يحل له أن يصيب إثماً من أهله وذويه ، ولا يحل أن يرميه بالفاحشة ، ولا يحل له أن يغتابه ولا أن يبهته بأكاذيبه ولايحل له أن يهمزه ولا أن يلمزه ولا أن يؤذيه بالسوء من القول ، ولا يحل له أن يتجسس عليه ليقف على ما أخفى من شئونه ، ورغب فى ستره عن الناس ، وحرام على كل امرىء أن يعتـدى على مال أخيه ، وأن ينال منـه أى شىء دون إذنه ورضاه بأية وسيلة من الوسائل ، فلا يحل له أن ينال منه شيئاً اغتصاباً أو سرقة أو نصباً أو جحداً لوديعة وأمانة ، أو انكار لما له عليه من الديون إلى غير ذلك

من الوسائل ، ولا يحـل له ان يؤذيه فى ماله بما يؤدى إلي كساد سلعته وبوار تجارته فليس له أن يسوم على سومه ولا ان يبيع على بيعـه بان يعمل على نقصه ليبيع هو للمشترى سلعته ، ولا أن يسلك معه طريق التجسس وهو أن يزيد الإنسان فى ثمن المعروض للبيع للتغرير بالمشترى وخديعته ، وحرام على كل امرىء ان يظلم أخاه فى أى حق من حقوقه ، من طريق الحكم والقضاء أو من أى طريق آخر . فالظلم مرتعه وخيم ، ولا عاقبة له إلا قبل العدالة ، وذهاب ريح الأمن والطمانينة وأشاعة الفساد فى الأرض ، وحرام كل امرىء أن يحسد أخاه على ما أتاه الله من نعمته كرها لتفضل الله عليه وتمنيا لزوال نعمته عنه فليس من وراء الحسد إلاّ غل الصدور وتنافر القلوب وتفرقة الكلمة ثم الذل والهوان .

ولهذا كان من كبائر الإثم أن يعمد المرء إلى ما يثير البغضاء فى النفوس ، وما يؤدى إلي التدابر والتقاطع من أى لون كان ذلك ، وفى طليعة ذلك سخرية القوم بالقوم ، وسخرية النساء بالنساء ، والتنابذ بالألقاب وتحضير المرء لأخيه وتعاليه عليه بما فضله الله به عليه من قوة أو مال أوحسب أوجاه تناسيا أنه أخوه فى الإنسانية وأن أباهما واحد وأنه لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأبيض على أسود ولا لأحمر علي أصفر إلا بالتقوى وأصلح الأعمال ، التى يعود خيرها إلى الإنسانية ، وقد تناول كل ما ذكرت ماروىمسلم فى صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلي الله عليهوسلم قال : لاتحاسدوا ولا تناجشو ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ولا يبغ بعضكم على بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يكذبه ، ولا يحقره ، التقوى ههنا ، يشير إلى صدره ثلاث مرات ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه .

والمنهاج الإسلامى لم يقف بالإنسانية عند هذا الحد السلبي ، حد الكف عن الظلم ، والأذى بسائر ألوانه ، وجاء بالأمور النافعة التى تمليها الإخوة الصادقة ، ويقوم عليها صالح الأفراد والجماعات ، وتحمى نظام الدولة أن من يناله شىء من الخلل والوهن . فأمر الله سبحانه الأفراد أن يعتصموا بحبل الله جميعاً لتجتمع قلوبهم وتتوحد كلتهم ويكونوا يدا واحدا وتعلو مكانتهم ، وضرب لهم فى ذلك

أحسن الأمثال فنبأهم أن كل واحد منهم للآخر قوة ومعة وأنهم كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، عليهم أنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . ونهاهم عن التفرق حتى لا يفشلوا وتذهب ريحهم ، وأمرهم بالتعاون على البر والتقوى ، ونهاهم عن التعاون على الإثم والعدوان وأمر كل امرىء أن ينصر أخاه إذا أصابه ظلم أو وقع عليه عدوان ، ونهاه عن خذلانه وإسلامه متى ألمت به ملمه ، وكان فى مقدوره أن يقوم بنصرته ، كما أمره بتفريج كربة المكروب ، وأمر الميسرين أن ييسروا على إخوانهم المعسرين .. وهو واجب عليهم من الإنفاق أو بالصدقة أو بالأفراد .

وأوجب على الكافة حفظ النظام وإطاعة التشريع وأن يحمل كل منهم غيره على ذلك وتلك هى إطاعة الله ورسوله وأولي الأمر ، وهى النصيحة لهم ولعامة المسلمين .

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر مسلماً ستره الله فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، وقال علية الصلاة والسلام : الدين النصيحة ، فقالوا لمن ؟ قال لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .

الدين النصيحة

حرص المنهاج الاسلامى الحرص كله على إسداء خالص النصح لسد الخلل والتوجيه إلى الخير المستقيم ، وعلى احكام الصلة بين الراعى ورعيته ، اتسع نطاقها أو ضاق وعلى احترام الشرائع وتنفيذ أحكامها فى اخلاص اقامة للعدل وصونا للنظام الصالح واجتنابا لاسباب الخلل والانحلال . ويجمع كل هذا وما أكثر منه ما روى مسلم فى صحيحه ، عن تميم الدارى ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الدين النصيحة : قلنا لمن ؟ قال . : الدين النصيحة : قلنا لمن ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ولأئمة المسلمين ، وعامتهم .

والنصيحة فى الأصل معناها التصفية والتنقية ، والاصلاح وسد الخلل واستعملت فى كلام الله تعالى وفى ، المطهرة ، وفى كلام العلماء وسائر الناس بمعنى : الاخلاص فى العقيدة والعمل ، والاخلاص فى المشورة ، الصادقة ، وفى التوجيه الصالح ، وفى الارشاد إلى طريق الخير والتحذير من الوقوع فى الشر ، وذلك هو معنى النصيحة فى الحديث الشريف الذى رويته .

والنصيحة قد جعلها هذا الحديث الدين كله لأنها عماد وقوامه متى راعينا ما تعلق بها وارتبطت به . ورد فى الحديث الذى تناول صلة العبد بربه وصلته بدستور الأمة المحمدية وشرعة الله المحكمة ، وصلته بالصادق والأمين ، الهادى إلى الصراط المستقيم ، مخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وصلة المحكومين بالحاكمين وصلة العامة وسواد الناس بعضهم ببعض ، فهو حديث جامع عظيم الشان تناول كل نواحى الحياة ، وما فيها من الصلاة حتى قال : العلماء بحق أن عليه مدار الاسلام كله .

والنصيحة لله جل قدره هى الاخلاص الكامل فى الايمان بوجود ذاته

العلية و بوحدانيته لا يشرك به احد وبإتصافه بسائر أوصاف الكمال وتنزيهه عن كل شائبة من شوائب النقص ، لا يعبد إلا هو ، ولا يستعان إلا به ، ولا يلتمس الهداية عند غيره ، مع الاخلاص فى الايمان بالغيب وتصديق كل ما وعد به وإطاعة أوامره واجتناب نواهيه ، فمن أدى ذلك وأقامه كان لله سبحانه من الناصحين ، فما النصيحة لله إلا الاخلاص له فى العقائد وفى الأعمال .

وكتاب الله تبارك اسمه هو القرآن العظيم نزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق فيه الايمان الصحيح والعقائد الحقة ، وفيه الايمان وخير الدارين ، وفيه العبرة ، البالغة والموعظة الحسنة ، وفيه مكارم الأخلاق والآداب السامية وفيه الشرائع المحكمة وفيه تبيان كل شيء .

والنصيحة لكتاب الله هى الاخلاص الكامل فى الايمان بأنه من عند الله وكلامه ، وفى التصديق بكل ماجاء به وفى التأدب بأدابه ، والتحلي بأخلاقه ، وفى إقامة فرائضه ، واجتناب محارمه ، والتزام حدوده . وفى الاعتقاد أنه الآية الكبرى والمعجزة العظمى الباقية ما بقى الدهر .. ثم الاخلاص فى توقيره وتعظيمه ، والتعبد بتلاوته ، والاستماع له والانصات إذا قرىء . وفى التأدب برفيع الآداب عند سماعه وعند تلاوته .

ورسول الله عز شأنه هو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، أرسله ربه إلى الناس جميعاً ليبلغهم ما أنزل إليه من ربه قرآناً كان أو وحياً آخر ، وليبين لهم الآيات ويفصل لهم الأحكام ، والنصيحة له عليه الصلاة والسلام تكون فى حياته وبعد مماته وتكون بالايمان برسالته ، وبتصديق كل ماجاء به ، وبالاهتداء بهديه ، وبالاقتداء بسنته وكل ما يكون نصيحة لله ونصيحة لكتابه .

والأمراء ، جمع أمير ، وهو كل من له امرة وسلطان على غيره ، قبل العدد أو أكثر والأمرة على مراتب متفاوتة تبدأ برعاية المرأة لبيت زوجها وولده ، وتنتهى بالامارة العليا إمارة الدولة ورياستها العظمى ، وكل الامارات من الضروريات الاجتماعية ، ولا يستقيم أمرها إلا إذا سادت النصيحة على جمع أطرافها ، فالأمراء على اختلاف مراتبهم مطالبون مع غيرهم بالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله ومتى

تحلوا بهذه الفضيلة العظمى عم الخير جميع رعيتهم ، وكان مجتمعهم مجتمع رحمة واشفاق ، وعدالة وحزم ويسر ورخاء ، وتقدم مضطرد .

أما نصيحة الرعايا لهم فلها ضروب شتى يقع فى طليعتها إطاعة أوامرهم وتنفيذ أحكامهم والحفاظ على مالهم من هيبة وكرامة ، وتقبل مناهجهم فى الحكم ما استقاموا لربهم ، ولم يامروا بمعصية متيقنة ، والتزام هذا ، وان كان هناك ما يكره ، خير للجماعة من تفرق الكلمة وسيادة الفوضي بسبب اختلاف الأهواء وتباين الآراء . .

يرشدنا إلى هذا قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم) والأمراء هم أولوا الأمر ، أو هم من بينهم لما ترشدنا اليه الأحاديث الكثيرة التى رواها البخارى ومسلم وقوله ﷺ : اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن برأسه زبيبة .

وقوله ﷺ لأصحابه : سترون من بعدى اثرة وأمورا تنكرونها ، قالوا فماذا تأمرنا يارسول الله ؟ قال : أدوا إليهم حقهم وسلوا الله حقكم . وقال : من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبره فانه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت الأمات ميتة جاهلية ، وقال : السمع والطاعة علي المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . .

(٢)

الدين النصيحة هو الحديث الذى قال فيه العلماء أنه من جوامع الكلم ، وأنه حديث عظيم الشأن عليه مدار الأسلام كله ، جمع فى إيجاز أصول تعاليمه الرشيدة ، التى تناولت كل الروابط أفضل تناول يكفل للمجتمع الانسانى اسباب الخير والفلاح ، وقد بينت أن النصيحة لأمراء المسلمين تقع على ضروب شتى تجىء فى طليعتها طاعة المحكومين للحاكمين وتنفيذ ما يأمرون به الرعية إقامة لأمانة الحكم التى حملوها ، مالم يأمروا بما هو كفر بواح ، او بمعصية أخرى متيقنة ، او باى أمر يكون انتهاكا صارخاً لحرمة القانون واجب الاتباع .

ومن ضروب النصيحة التي يجب أن تؤديها الرعية للأمراء الاخلاص التام فى اعانتهم على تطهير مجتمعهم من امراضه ، والقضاء على عيوبه وتنقيته من كل ما علق به من الشوائب ، وعلى الوصول به إلى المستوى الكريم . فحق علي كل امرىء ألا يقف عند طاعته هو للقانون وأمثاله لأوامره المشروعة ، وعليه فوق هذا أن يعمل جاهدا على وأد ما يستطيع وأده من أسباب الفتنة والنفاق ، ومحاربة ما يستطيع محاربته من ألوان الدس والتآمر جل أمرها أو صغر ، ومقاومة ما تنطلق به ألسنة السوء من الأراجيف وكل ما من شأنه أن يشيع فى الدولة الفساد والانحلال ، حتى يكون عونا صادقا لأمرائه ، وناصحاً أميناً لهم مهتديا فى هذا بهدى بارئه وحق على كل أمرىء أن يرفع إلى أمرائه ما يقف عليه من انتهاك الحرمات وتعدى الحدود وما يقع عليه وعلى غيره من جور الولاة والعمال وعسفهم ماملا على إصلاح مجتمعه واستقامة أموره فان قام بهذا كان من الناصحين ولاعليه بعد أن يستجيب له مجيب أو تخيب له مسعى ، فقد أدى ما عليه من واجب النصيحة ، وإذا قصر الآخرون كان الله عليهم حسيباً وحق على كل أمرىء أن يخلص فى مشورته لأمرائه إذا استشاروه أو استطاع إليها

سبيلا ، وان لم يندب لها ، فالعمل على صلاح أمر الجماعة واجب على الجميع ، وصلاح هذا الأمر حق للجميع ، وخيره إلي الجميع ، وعليه ألا يصدر فى مشورته لهم إلا عن درس وتمحيص ، وتقلب للأمور وبعد الوصول إلى الرأى الحصيف، فذا هو الرأى يرجى خيره ، وبه تكون النصيحة الحقة ..

أما المشير يدفعه المتسرع ، أو يستهويه حب الظهور وانتزاع البناء أوالوصول إلى ذا او ذاك من منافعه الخاصة فيبادر إلى المشورة الفجة والرأى الفطير ، فهو فى الأعم الأغلب أبعد ما يكون عن معنى النصيحة ، وعن إصابة الرأى المستقيم ، فلا خير فى هذا من المشيرين ، وقد كانوا ولا يزالون معوقى اصلاح وعوامل خلل واضطراب . : وحق على كل إمرىء يرى فى أمرائه اثره ، أو تقصيرا فى واجب عام أو انحراف عن الطريق السوى ، أن يعمل على تقويمهم متى كان آهلا لذلك ، وكان فى استطاعته القيام ، وكان الخير من وراء نصيحته ، فإذ ذاك عليه أن يسلك سبيل الموعظة الحسنة ، وأن ينصح بالتى هى احسن ، وان يكون حازما فى غير عنف ، لا يشيع شناعة ولا يثير فتنه . . اما إذا لم يرج خيرا ، وخشي الثائرة والشر فلا نصيحة عليه ، وما سبيله إذ ذاك إلا قول الله جلت حكمته (عليكم انفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وقوله : عليه الصلاة والسلام فى ولاة الجور والأثرة : أدوا لهم حقهم واسألوا الله حقكم ، وعليهم التزام الصبر علي البلاء وانتظار الفرج .

هذه هى النصيحة لأمراء المسلمين ، وهذه سبيلها وذاك ما يمكن أن تؤديه للمجتمع من الخير والسعادة ، والمسلمون الأولون قد فهموا مكانة هذه النصيحة حق الفهم فما قصروا وما توانوا فى القيام بها ، كما كان الأمراء أنفسهم يلتمسونها عند رعيتهم ويطالبونهم بها ، فهذا أبو بكر الصديق رضى الله عنه وارضاه يقول : فى اول خطبة له بعد ان بويع بالخلافة : ايها الناس : وقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فاعينونى وإن أسأت فقومونى . وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول له رجل من رعيته : إتق الله ياعمر : وأكثر عليه فقال له قائل : أسكت فقد أكثرت على أمير المؤمنين . فقال له عمر : دعه لا خير فيكم إن لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إن لم نقبل ، وخطب يوما فقال :

ايها الناس : إن لنا عليكم حق النصيحة بالغيب والمعونة على الخير ، وخطب مرة أخرى فقال : أيها الناس إنى ما أرسل اليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، وإنما أرسلتهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، فمن فعل به شيء من هذا فليرفعه الى فوالذى نفسى عمر بيده ، لأقصنه منه ، وقد جاء من بعدها بالكثيرون أمراء المؤمنين .. وقد كانوا من العلماء والفقهاء ، فكانوا كأسلافهم يلتمسون النصيحة من رعيتهم ، كما يلتمسون الهداية والنصح والموعظة والتذكير بأحكام الله وما أعده لعباده ، وعند أئمة الدين ويلحون عليهم فى غشيان مجالسهم لهذه الغاية النبيلة ، لافى شئون الدولة العامة فحسب ، بل فيما يرجع إلى شئونهم الخاصة أيضاً ، وكانت أعينهم تفيض من الدمع تقديما لعظم المسئولية وفرقاً من التقصير وتضييع الرعية بأمثال هذه الرعية وبأمثال هؤلاء الأمراء آتت النصيحة أكلها وصلح المجتمع الاسلامى أيما صلاح وبلغ ذروة الحضارة ، وكان أهله خير أمة أخرجت للناس . .

النصيحـــــــة

كيفية النصيحة :

أما النصيحة العامة للمسلمين فواسعة الأبواب ، كثيرة الشعب ، مختلفة المسالك وعلى من يبذل النصيحة للعامة أن يبدأ بنفسه فينصح لها ، فهى أولى به ، وهو أولى بها ، وهو إذ ذاك الناصح الأمين ، الذى يقتدى به ويرجـو الناس الهداية من جانبه وتلتمس النصيحـة عنده ، ويصل قوله الى القلوب فيجلوا صـدأها ، ويذهب غشاوتها وتثمر نصيحته أجود الثمار ، ويؤتى أجره مرتين ، وله اللذة الكبرى ، لذة النجاح والتوفيق .

أما من أهمل النصح لنفسه فذاك هو الناصح المزوءة لا يرجى لنصحه خير ، وليس له من ورائه إلا السخرية البالغة من هذا النصح ومن تلك الصفاقة فما ظنك بتارك الصلاة ينصح لغيره بأن يؤديها فى أوقاتها وما ظنك بمقطع الأرحام ينصح لغيره بصلة رحمه وما ظنك بمخمور ينصح لسواه بالتنزه عن الشراب وما ظنك بلص ينصح لسواه بمراعاة الحرمة لأموال الناس والتزام الحفاظ عليها ..

إن هؤلاء وأمثالهم لا خير فيهم ولا فى نصحهم الذى لا يلقى سوى الأعراض وينفر من النصيحة نفسها أى نصيحة كانت ، ومن مصائب المجتمع الاسلامى فى كل العصور إن كان فيه هذا المرض فتصدى لنصح عامة المسلمين من لا ينصح لنفسه ، يتزى بزى العالم الواعظ أو يلبس لباس المتصوف الناسك ، لاهم له إلا الوصول إلى أغراض خاصة ومنافع ذاتية فلم يكن داعية لهداية وكان من رءوس النفاق وأئمـة الضلال وهم من أخوف ما خاف رسول الله ﷺ على امتـه . وإن الله سبحانه وتعالى لطيف بعباده فكان ولا يزال طوائف من الأمـة ظاهرين على الحق هم أهل النصيحة وأحق بها .

أن الرزية كل الرزية أن يتصدى للنصيحة من ليس من أهلها ولا يحسن القيام بها قد تكون النصيحة فى شأن ما هو معلوم من الدين بالضرورة ولا يخفى أمره فى دار الإسلام على أحد من أهلة فكل من توفر له عقله وادراكه وفهمه للفضائل والرذائل لا ريب فى أنه أهل للقيام بالنصيحة فى مثل هذه الشئون وهى حق واجب عليه لسواه ..

أما إذا كانت النصيحة فيما يتجاوز هذا النطاق لا يكون أهلا لها إلا من يفهم موضوعها حق فهمه ويحسن القيام إحساناً تاماً ، وإن لم يكن على هذه المشاكلة كان ممن يهرفون بما لا يعرفون ويخبطون خبط عشواء ، وما مثلهم الا الاعمى يتصدى لقيادة الطارات . . والسيارات والجاهل بالصحراء ومداخلها ومخارجها ومساربها يتقدم القافلة فى تلك الصحراء ليكون دليلها ومرشدها ..

ومن أقدم على نصيحة غيره بما لا يعرفه من دين الله كان مرتكبا لكبائر الاثم ، مخالفاً لقول الله عز وجل (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) وقوله جل قدره) ولا تقولوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام ، وما هو إلا من جهلة المعلمين وما جنى المقتين ، الذين أجمع أئمة الدين على وجوب الحجر عليهم منذ ظهر أمرهم ..

ولقد كانوا قديماً وحديثاً وكان من بينهم طائفة من القصاص كانوا من أجهل الناس بدين وبمايزوالونه من النصح وارشاد العامة لا هم لهم إلا الارتزاق لا يبالون بما عداه فأكثروا من وضع الحديث والكذب على رسول الله ﷺ لا يبالون بالحديث المشهور المتواتر معناه من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، وكان من بينهم قوم من الجهال أكثرهم من الأميين ألصقوا أنفسهم بالتصوف والمتصوفين ، ووضعوا أنفسهم فى محل القيادة والارشاد ، وانتحلوا لأنفسهم ولاية الله ، وهداية من يريدون أن يسلكوا طريقهم إلى الله فلثوا نفوس اتباعهم بالخرافات المنكرة ، ولقنوهم أحكاماً ما انزل الله بها من سلطان لا يعرفها فقيه ولا مثقف غير مبالين بقوله ﷺ : من أحدث فى ديننا ما ليس منه فهو رد عليه وكان بينهم أقوام لم يتفقهوا فى دين الله وشرائعه ، ولا يعرفون عنه ولا من أحكامه إلا مايعرفه بسطاء العامة ، ومع هذا يكونون من أنفسهم جماعات يصفونها بانها

جماعات إسلامية ويتخيرون لها الأسماء البراقة المغرية ويزعمون أنهم خير النصحاء ، وأنهم حفظة الدين والقوام على اتباع أحكامه وتنفيذ تعاليمه ، سلطان منحوه لأنفسهم وولاية عامة على المسلمين لا يدرى من أين جاءتهم ، وهم فى ظلها يدخلون فيما لا يحسنون ، وينقلبون فى الضلال ويتربعون فى أفق فوق علماء المسلمين ، ينهشون الأعراض ، وينحون على من شاءوا من المسلمين والمسلمات يفسقون من أرادوا تفسيقه ويكفرون من شاءوا تفكيره وكثيراً ما أظهرت الأيام أن من رؤساء هذه الجماعات من كان به مس من الجنون .. فنهم من قال : للإمام أحمد فى مسجد من مساجد بغداد ، حينما سمعه يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث يرويه عنه فسأله فى ذلك انك أحمق ، ليس فى الدنيا فى اسمه احمد بن حنبل سواك ، ومنهم من يقول : ما اتخذ الله من ولى جاهل ولو اتخذه لعلمه ليثبت لنفسه علماً لدينا بعيداً عن مجرى العادة ، ومنهم من يقول : إن الدين الاسلامى دين لا أسرار فيه ولا وسطاء ، وهو مباح للجميع ، ومن حق الجميع أن يتكلموا فيه وفيه يستوى العلماء وغيرهم متجاهلين ما قدمت من الكتاب الكريم .

وقوله تعالى (هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقوله جل شأنه فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (وما أخذ رسول ﷺ على المسلمين من ألا ينازعوا الأمر أهله) وما يجرى على لسان الكافة من قولهم : إنما العلم بالتعليم ، ولكن ما لهذه الطوائف ولهذا كله انهم لا تعنيهم سوى أهدافهم وليس بينها النصيحة . وهكذا قدر فكان ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو يقول : إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم أتخذ الناس رؤسا جهالا فسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا ـ ومنازعة الجهال العلماء أسوأ من هذا عاقبة وإلى الله المصير .

النصيحة لعامة المسلمين

النصيحة لعامة المسلمين من قوام الدين ، وهو حق واجب لهم على كل من كان أهلا لها مستطيعاً لأدائها ، أميرا كان أو واليا أو عاملا أو من سواد الناس، أمامن لا يستطيعها أو ليس أهلا لها ، فعليه أن يلزم خاصة نفسه وإلا يشغلها بما لا يرجى خيره أو تخشى مغبته فعلى من يريد بذل النصيحة لسواء أن يكون القدوة الحسنة بالمثل الصالح وبخاصة فيما يبذل النصح فيه ، فذلك الذى يصل إلى القلوب ويستهوى الأفئدة ، ويتحكم فى المشاعر ، وعلى الناصح الأمين أن يكون على بينة فيما يشير به من أمور الدنيا ، وعلى علم تام بما يبذل فيه النصح من أمور الدين وإلا يدخل فيما لا يحسن القيام به ، وإلا كانت سبيله محفوظة بالأخطار ، وكان إلى الضلال أقرب منه إلى الهدى ، وكان اثم نصحه أكبر من نفعه ، وكان كمن يقول فيهم العليم الخبير ، (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) فما نصيحة الجاهل إلا جدال فى ظلام وخبط فى الأمور بغير علم ولا هدى .

وعلى الناصح الأمين ألا يذهب فى نصحه مذاهب الشدة والعنف ، وإلا يسلك فيه سبيل التأنيب ، والتقريع ، والافراط فى اللوم والتشهير ، فذلك مسلك أبعد ما يكون عن مسالك النصح وحب الخير ، وما هو إلا مسلك الحاقد الناقم وانه الفرصة فاستجاب لضعفة أو مسلك ذلك السلطان المعاقب ، لا مسلك الهادى المرشد وهو مسلك ليس من ورائه إلا ضياع الجهود ، والأعراض عن النصيحة وعن الناصحين وتنافر القلوب ، والناصح الأمين الحكيم هو من يسلك فى نصحه مسلك الموعظة الحسنة والمنطق السليم ، والإقناع والتبصير ، بعواقب الأمور يؤدى كل هذا بالكلم الطيب ، والقول اللين ، يفيض بالرحمة والاشفاق وحب الخير ، هذا هو الأحرى أن تستجيب له النفوس ، وأن يبلغ نصحه مبلغه وأن تحمد له صنائعه ، عند الله ، وعند الناس . . وهذه الطريقة المثلى فى النصيحة

وما يشا كلها هى التى جاء بها ادب الكتاب الكريم وهى هداية الله عز وجل لرسله وأنبيائه وعباده المخلصين ، فيقول تعالى لرسوليه موسي وهارون عليهما السلام .

إذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) ويقول جل شأنه لامام المرسلين صلى الله عليه وسلم (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر) ويقول له ، (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) ويقول له (ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم (ويخاطب جل شأنه الكافة بقوله : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم) وبقوله (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم) .

هذا هو أدب الكتاب الكريم ، وتلك هى هداية الله جلت حكمته ، غير أن المجتمع الاسلامى قد ابتلاه الله فى القديم وفى الحديث ببعض ما نصبوا أنفسهم للنصح والارشاد ، وهم لا يحسنون إلا العنف والشدة ، والتأنيب والتشهير غير مبالين بعاقبة أمرهم وفشل نصحهم وإرشادهم ، زاعمين أن هذا حق للنصحاء . ولازم من لوازم الحمية فى الدين والغيرة على حدود الله ومحارمه ، فاذا ما هدوا إلى الصواب لم يهتدوا وإذا ماذكروا بآيات الله أخذتهم العزة بالاثم وأخذوا يتلون ما قال الله سبحانه فى المشركين وما توعد به الكافرين والمنافقين ، ونسوا أن هذا مقام الألوهية وأنه حق خالص لله وحده هو القاهر فوق عباده يخاطب من يشاء بما يريد وليس ذلك لأحد من عباده فى مقام النصح والارشاد ، ألا ساء ما يصنعون وساء ما يفهمون ، انتحلوا لأنفسهم سلطاناً الهيا وخلوا بين النصحة وبين ما يصنع ولى الأمر بالمذنب مستحق العقاب ، وما يعامل به العدو المحارب فلو أنهم كفونا شر نصحهم ، وكفوا اذاهم وبلواهم لكان خيراً لهم وللناس . .

والنصحة لعامة المسلمين حق وجب لهم بأخوة الأنسانية وبأخوة الاسلام. فهى حق واجب للجميع، للقريب والبعيد، للذكر وللأنثى ، للصغير والكبير، للشريف

وللوضيع للغنى وللفقير للحر وللرقيق ، للأبيض وللأسود وللأصفر ، ولكل المسلمين أيا كانت إقامتهم مهما تفرقت ديارهم واختلفت منعتهم وسلطانهم ، ويلتحق بهم من غيرهم كل من كان مواطناً لهم ودخل فى ذمتهم فكان له مالهم وعليه ما عليهم وبصلاح امره يكون صلاح امرهم ومجتمعهم ، ولا مرية فى ان حق ذوى الوشائج القربية والصلات الوثيقة فى النصيحة اقوى وآكد .

وأولى الناس هؤلاء وهؤلاء بالرعاية موالاة النصيحة هم معشر اليافعين والشباب، فهم اشد حاجة إليها ، وهى لديهم ابلغ اثراً واجدى نفعا ، فهم معشر المعرفة الضئيلة والتجربة القليلة ، ومنهم من لا تجارب له ولشبابهم طيشة ، ولنفوسهم نزواتها ، ولشهواتهم شهرتها ، وهم فى الوقت نفسه لاتزال اهواؤهم لينة وطباعهم طيعة ، وفطرتهم فى طور السلامة والنقاء ، وما النصيحة لهم إلا التعليم والتهذيب. وصالح التوجيه ، والرقابة اليقظة التى لا تنام ولا تغفوا . فمن حقهم ان يؤدى إليهم هذا الواجب خير الأداء ، فى كل وقت وحيثما كانوا . . وإذا كانت وسائل رعاية الشباب ونصحه منها العام ومنها الخاص ، فان افضل نحله لشبابنا ان يربى فيه الوازع الدينى منذ نشأته وما فضل الشاب الذى نشأ فى طاعته الله بالفضل الذى مارى فيه إنسان .

الامر بالمعروف والنهى عن المنكر

ومن النصيحة لعامة المسلمين التى حملها الحديث النبوى الشريف الدين ، وقوامه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة شئونهما بين العامة وبين الخاصة فى كل محيط فذلك هو الدين القيم وهو النصيحة الخالصة التى تؤتى أطيب الثمرات . .

والمعروف هو ما تعرفه النفوس الخيرة ، وتألفه بفطرتها التي تشوقها إلى طلبه والسعى إلى فعله وتحكم العقول السليمة بأنه خير وفضيلة . .

والمنكر هو ما تنكره الفطر السليمة وتنفر منه بطبعها ، وبحكم العقل الرشيد ، بأنه شرور ورذيلة ، . . فالمعروف هو الخير والفضيلة فى الأقوال وفى الأفعال وكل ما يتصل بهما . . والمنكر هو الشر والرذيلة فى كل هذا . . وإن شئت قلت ان المعروف هو ما أمر الله به وفيه رضاه ، والمنكر ما نهى جل شانه عنه وفيه سخطه وغضبه ، فإن الله سبحانه تفضلا منه ورحمة بعباده لا يأمرهم إلا بما هو خير وفضيلة ولا ينهاهم إلا عما هو شر ورذيلة .

ولا يكون الشر من المنكرات إلا إذا كان طلب الله سبحانه الكف عنه من الأمور البينة الواضحة التى قام عليها الدليل القاطع وما هو قريب منه ولم يكن مما اختلف فيه أئمة الهدى . . أما ما اختلفوا فيه فليس أحد الرأيين أو الآراء التى أبديت فيها أولا بان يكون معروفا وأن يكون غيره منكراً . . فالمعروف ما كان الأمر به متفقاً عليه أو ذهب إليه أحد الأئمة المقتدى بهم ، والمنكر هو ما اتفقوا على أنه منهى عنه فليس لأحد أن ينكر على آخر أنه تزوج بغير ولى ويعتبر ذلك من المنكر وإن كان بعض الأئمة يرى بطلان هذا الزواج وليس

لأحد ان ينكر على غيره أن يصلي تطوعا بعد صلاة العصر ، وإن كان بعض الأئمة يرى أنه محرم او مكروه تحريما ، هذا هو الضابط الذى يلجأ إليه لتبين ما هو معروف يؤمر به وما هو منكر ينهى عنه ، فليس من الدين فى شيء إلا يقول المرء فيما اختلف فيه إلا على ما يراه إن كان مجتهداً او على ما يراه الإمام الذى يقلده ، ويجعل وحده المعيار للمعروف والمنكر ثم يأخذ الناس بسوط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر زاعما أنهم على ضلال وإن كانو متبعين لأئمة آخرين ، فليس هذا هو هو النصيحة لعامة المسلمين ، وليس هذا أمراً بمعروف ولا نهيا عن منكر ، وما هو إلا العصبية المذهبية المقيتة ، وما هو إلا فتنة فى الدين وضلال غير أن المختلف فى شانه حرمته وحله يكون من المنكرات إذا قضى بحرمته أو نهى عنه ولى الأمر مراعاة لمصلحة الرعية ، فمن قضى بالتفريق بينه وبين زوجته التى عقد عليها بغير ولي صارت معاشرته لها بعد أن انبرم هذا القضاء ولزم ، من المنكرات التى يجب النهى عنها ، وإذا نهى ولى الأمر عن تعاطى شيء مما اختلف فى حله وحرمته وكان نهيه مراعاة لصالح الرعية وجبت طاعته فيما نهى عنه وصار تعاطيه من المنكرات . . .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أعظم هدف لبعثة الأنبياء والمرسلين ، وأول واجب على من اهتدوا بهديهم وخلفوهم فى امرهم وقاموا على تنفيذ تعاليمهم . . ولو أهمل أمره لشاع الفساد وساد الاضطراب ، وعمت الأباحية والفوضي ، ولقد امتدحه الله سبحانه ونوه بشأنه وشأن القائمين به فأمر به وقرنه علي الدوام بأركان الدين وأشار إلى أنه ثمرة من ثمرات الايمان . . فقد قال . . جل شأنه (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) فكان واجبا بهذا الأمر الالهى وقال تعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) .

وأشار هذا القول الكريم إلى أن الايمان هو مصدر الأمر بالمعروف

والنهى عن المنكر من المؤمنين والمؤمنات . . . وامتدح جل شانه المسلمين الأولين فقال (كنتم خير امة أخرجت للناس) وذكر أنهم من الصالحين فقال : تعالي ذكره (من اهل الكتاب امة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين) وكما قرن الله ذلك بالإيمان إعلاء لمكانته وبياناً لمقدار منزلته قرنه كذلك بالمحافظة على الحدود واقام الصلاة وإيتاء الزكاة فقال تعالى : (يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) التائبون العابدن الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) .

. وقد حذر الله جل شانه من التهاون فى ذلك بقوله : (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب) . كما لعن الذين أضاعوا هذه الخلال العظيمة فقال : جل ذكره : لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل علي لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) .

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفاية أخذا من قوله جل شأنه (ولتكن منكم أمة) فإنه يكون فرض عين علي من تعين له أو كان مشاهدا لوقوع المنكر ، فكل من شاهده كان عليه أن يمنع وقوعه أو يحول بين صاحبه وبين الاستمرار فيه من الوسائل المستطاعه التى يملكها فقد روى فى الصحاح أن مروان كان يلعن من يلعن فى خطب الصلاة فما كان للناس حيلة فى خطبة الجمعة ـ أما خطبة العيدين فهى بعد الصلاة وكان الناس ينصرفون متى انقضت الصلاة فقدم مروان

الخطبة على صلاة العيد فقال له قائل ان الصلاة كانت قبل الخطبة فقال له دعنا مما كان هناك فقال أبو سعيد الخدرى أشهد لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الإيمان . . فإذا أدى واجبه على القدر الذى يستطيعه فلا عليه بعد ذلك أن يضل من يضل . وذلك قول الله تعالى : (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا أهتديتم) .

الفصل الرابع

الروابط الانسانية فى الاسلام

كانت للناس جميعا نشاة واحدة فى بدئها وعناصرها ، نشأة الماء والطين ، نشأة الصلصال المسنون ، نشاة النفس الواحدة التى خلق الله سبحانه منها زوجها وبث فيهما رجالا كثيراً ونساء وللناس جميعاً نمط واحد فى توالدهم وتناسلهم وما يسبق ذلك وما يتلوه من أطوار . وللناس جميعا معاشهم وتقلبهم فى الحياة وآمالهم وآلامهم فى أساليب قد تبدو مختلفة فى ظواهرها ولكنها واحدة فى جوهرها . وللناس جميعاً المصير الواحد المحتوم ، ثم ما يتلوه من الحياة الأخرى تلك وشائج لا تدانيها وشائج انعقدت بها أخوة الإنسانية ، واحكمت بها روابط الصهر والنسب وقرابة الدم والتشابه فى كل مايقوم به امرهذه الحياة وهى روابط ادركناها بعقولنا وفهمناها بقلوبنا ، ولا تنفك تراها رأى العين ما قلب الله الليل والنهار ، ولا يزال الكتاب الكريم يذكرنا بها ما تليت علينا آيه : (ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم أنتم بشر تنتشرون) ، (وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديرا) ، (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً) ، (والله انبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا) ، (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) .

وكان من حق القربى والأخوة فى الانسانية ، ومن حق هذه الروابط العديدة المحكمة ألا يصدر عنها إلا الخير وألا ينجم عنها إلا التعارف والتآلف والتعاون على البر ، وألا تكون معها شرور ورذائل ، ولا تقاطع وتناحر ، ولكنها النفوس وما فطرت عليه من أثرة ، والقلوب التى استحوذ عليها الشيطان فأنساها كل رابطة مقدسة ، وباعد بينها وبين التعاليم الصالحة ، فأضيبت أخوة الإنسانية بآفات مستعصية ، تأتى فى طليعتها آفة البغى والظلم ، آفة السعى فى الأرض فساداً ، وهى آفة تصدر أكثر ما تصدر عن رغد العيش وبسطة الرزق (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير

بصير) وعن الغرور والاعتزاز بالقوة والغفلة عن قدرة القوى العزيز الظاهر فوق عباده (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه : لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين قال : إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) ، وقد يكون البغى وسوسة من معتد أثيم وتدبيراً من باغ متسلط ، يوعز به إلى أعوانه ليفرق الكلمة وينقض الصفوف ويضرب الأخ بأخيه ، ثم يفترس الجميع .

والبغى قد يكون من الإنسان على أخيه ، وقد يكون من الحاكم على محكومه وقد يكون من طائفة على أخرى ، والبغى شر كله وهو بغيض ومذموم عند الله وعند الناس (قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى فى الأرض بغير الحق) ، (إن الله يامر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون (ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم) فإذا كان البغى فتنة لأحد المقربين فد بينه اليه الله جلت حكمته بما يضرب له من الأمثال (ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال : أكفلنيها وعزنى فى الخطاب قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى وحسن مآب) .

واذا كان البغى من طائفة على طائفة أخرى فذلك هو الرذية كل الرذية والبلية شر البلية ، باب من أوسع أبواب الفتن ومسعر عداوة وبغضاء وتفرق كلمة وانحلال وإذ ذاك يفرح المتربصون ، ويحطمون من كانوا بجمعهم آمنين لذا جاء الكتاب الكريم فى هذا الأمر الجليل بما فيه الدواء الناجح ، فأوجب على جماعة المسلمين أن يسرعوا بتدخلهم اذا زر قرن الفتنة وبدأت مظاهر القتال

ليعملوا جاهدين على وأد الفتنة ، وحراسة القومية والابقاء على الوحدة ، فإذا ما استقام الأمر كفى الله المؤمنين مصائب الفتن ، وأن أبت إحدى الطائفتين إلا بغيا وقتالا وجب على جماعة المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتى ترجع إلى امر ربها وتعود الى تعاليمه الحكيمة فإذا ما فاءت كان العدل من الجماعة والإقساط بين الطائفتين (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء الى امر الله فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين، أنما المؤمنون إخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) .

وحق التدخل هو حق جماعة المسلمين وحدهم ، وهو واجب عليهم وحدهم فهم الاخوة وعليهم أن يبقوا على رابطة الاخوة ما استطاعو إلى ذلك سبيلا ، وهم الذين يرحبون بالقضاء على هذه الشرور ، وما كان لمؤمن أن يلجأ فى مثل هذا الشأن الى غير أخوته فإن الآخرين لا يألو نه إلا خبالا وأحب شيء الى نفوسهم ما فيه إذلالهم وتمزيق وحدتهم وتفريق كلمتهم ، فعلى الباغية أن تخشي ربها وتحذر بطشه ، وعلى الأخرى الا تلجأ لغير قومها وأن تعمل بتعاليم ربها .

الرحمـــــة

الرفق بالصغار ، وإحسان تربيتهم ، والعناية بسائر شئونهم والإشفاق على المرضى والضعفاء ، وتوفير أسباب السلامة والقوة لهم . والبر بالبؤساء والمحتاجين ، وتنفيس الكرب عن المكروبين وإغاثة المظلومين ونصرتهم . وكشف السوء عن المضطرين وإغاثة الملهوفين . ورفع الحرج عمن نزل بساحتهم وستر الزلات ومغفرة السيئات ، كل أولئكم وأشباهها ليست إلا ضروبا من ضروب الرحمة ، التى وقر فى النفوس معناها الذى لا يفى ببيانه إلا العبارات المفصلة ، ولا يكاد يحيط به القول الجامع . والرحمة نعمة كبرى وخلة عظمى لا غنى عنها فى أى عمل من الأعمال ولا فى أى وضع من أوضاع الحياة لا يستغنى عنها الفرد ولا الجماعة ولا الضعيف ولا القوى ولو أمسك الله عز قدره رحمته عن عباده ، ورفع ما بينهم من التراحم لضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وقست عليهم هـذه الحياة أشد القسوة وكانت الجحيم المستعمر والعذاب المقيم :

والرحمة رابطة من أفضل روابط الإنسانية ، ولذا اتخذها الإسلام شعيرة من أعظم شعائره ، يذكرها المسلم فى كل حين ، ويرددها على سمعه وقلبه بالكتاب الكريم ، وفى صلواته وتشهده وأمره أن يدعو بها ربه ، عبادة له ، والتماسا لفضله واستزادة من أنعمه ، وتضرعا إليه ليكشف عنه الضر ويلطف به فيما جرت به المقادير . والرحمة من صفات العلى القدير ، رب العالمين الرحمن الرحيم ، العزيز الرحيم ، البر الرحيم ، التواب الرحيم الغفور الرحيم الذى كتب على نفسه الرحمة وسبقت رحمته غضبه ، ووسعت رحمته كل شىء فبرحمتـه توالت على عباده نعمه وإحسانه وبرحمته حفهم لطفه فى كل ما عملوا وما تركوا وكان لهم فى رحمة الله بهم المثل الأعلى والقدوة الحسنى — والرحمة حلية من أعظم حلى الرسول الكريم ، ومن أفضل شمائله فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر — لقد جاءكم رسول من

انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فكان صلى الله عليه وسلم رسول الرحمه ، رسالته رحمة ، وهدايته رحمة وخلقه الرحمة ، ودعوته إلى الرحمة وكان لأخيه فيه الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة ، التى تفانوا فى اتباعها فكانوا كما وصفهم الكتاب الكريم : والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم .

ودين الإسلام يدعو فى توكيد إلى الرحمة ، ويرغب فيها بكل قوة ، فالله جل شانه يقول : فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة او إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكيناً ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة . وروى البخارى ومسلم وأحمد والترمذى وغيرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال من لا يرحم الناس لا يرحمه الله ، ومن لا يغفر لا يغفر له — وأنه عليه الصلاة والسلام قال : الراحمون يرحمهم الله ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

ودين الإسلام يدعو إلى الرحمة فى كل المحيطات . فهو يدعو إليها ويعلن أنها فى طلائع الأسباب التى دعت إلى قيام الأسرة الصالحة ، وينبه إلى أنها دعامة من أقوى دعائمها ، وأنه يريدها خلة شاملة تقبض بها قلوب أعضاء الأسرة أجمعين: ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدها او كلاهما فلا تقل لهما اف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » — وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن ، أو الحسين ، وكان عنده الأقرع بن حابس التيمى ، فقال الأقرع ، إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا قط . فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : من لا يرحم لا يرحم . وجاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنكم : تقبلون الصبيان وما نقبلهم . فقال له عليه الصلاة والسلام : أو أملك لك إن نزع الله الرحمة من قلبك .

وهو يدعو إلى أن تكون الرحمة رابطة ما بين الحاكمين والمحكومين

ويلعن من لم يعمل على ذلك . فقد روى عن انس بن مالك انه قال : كنا فى بيت فيه نفر من المهاجرين والأنصار فاقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل كل رجل يوسع رجاء أن يجلس إلى جنبه ، ثم قام إلى الباب فأخذ بعضادتيه فقال الأئمة من قريش ، ولى عليكم حق عظيم ، ولهم ذلك ما فعلوا ثلاثا ، إذا استرحموا رحموا وإذا حكموا عدلوا وإذا عاهدوا وفوا . فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والناس والملائكة أجمعين .

والإسلام يدعو إلى أن تكون الرحمة خلق المجتمع نفسه ، وخلة شاملة تخلق أحكم الروابط بين عامة أفراده ، وينبه إلى أن الإيمان التقى المتين لا بد أن يثمر هذا الخلق العظيم . فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : لن تؤمنوا حتى ترحموا . قالوا يارسول الله كلنا رحيم . قال أنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ، ولكنها رحمة العامة .

* * *

واخوة الانسانية من أقدم الروابط التى ربطت بين الناس منذ كان الناس ، وهى أيضا من أمتن هذه الروابط وأقواها ، وعنها نشأت ووجب أن تنشأ روابط أخرى كثيرة ، وخلال كريمه ، تأتى فى طليعتها خلة التعاطف والتراحم ، التى لا يستغنى عنها الأفراد ولا الجماعات ، ويحتاج إليها الأقوياء كما يحتاج إليها الضعفاء فدعا إليها الاسلام وحبب فيها ، وسنها فريضة ورغبة ، وتقصى جميع مواقعها فشرع لها المناهج الرحيمة التى لمع فى أفقها منهج التعاون والتكافل المالى منذ قرون متطاولة ، أيام كان الآخرون لا يطعمون لذلك طعماً ولا يراحون له رائحة ، وكانوا غارقين فى الأثرة والجشع وفى امتصاص أموال الضعفاء وجهودهم .

قضت سنة الله فى خلقه أن يكون منهم القادر ومنهم العاجز ، ومنهم القوى ومنهم الضعيف ، ومنهم العامل الجاد ومنهم الخامل الكسول ومنهم الذكي ومنهم

الغبي ، ومنهم الموفق المهدى ومنهم الفاشل المخذول وهكذا تباينت أحوال النجاح وتنوعت أسبابه ، وتفاوتت مقاديره وكانوا فى ذلك طبقات متفاوتة على وفق تفاوتهم فيما وهبوا من الأسباب وما عملوا وجدوا وكسبوا . وذلك قول الله جلت حكمته : « إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق » وكذلك فطر الله الناس على ان يحرصوا كل الحرص على ما كسبوا وما جمعوا ، وعلى ان تكون لهم ثمرات أعمالهم ، لا تعدوهم إلا لمن يعملون من اجلهم كما يعملون لأنفسهم ولولاهم ما كان كثير من العمل ومن الجهد والعناء ، وهم اهلوهم واولادهم الذين يخلفونهم فى اموالهم وقد سايرت شرعة العليم الخبير تلك السنن وهذه الفطر فالأموال محفوظة على مالكيها ، وثمرات الجهود مصونة لمن أراد أربابها ، وعلى كل مستطيع أن يعمل ويجد ، وألا يقعد عن طلب الرزق حتى يكون عالة يتكفف الناس أو يسلبهم أموالهم بما أوتى من قوه وجبروت غير أنها شرعة لا تساير كل هذا إلى غير حد بل وقفت به عند الحد الذى لا عدوان فيه على حقوق الجماعة ولا إمساس فيه بما تحتاج إليه الدولة ، وعند الحد الذى لا يذهب بحقوق الضعفاء والعاجزين ، والمحتاجين . والبؤساء ، ومن نزلت بهم الكروب والشدائد . وكان لها عند ذلك ميدان فسيح لتقرير الأحكام الصالحة التى قررت حقوق الأفراد فى أموال غيرهم ، والأحكام التى قررت حقوق الجماعة والدولة فى أموال الأغنياء .

لقد راعت الشريعة السمحه ، الحكيمة المحكمة ، ضعف الضعفاء ، وبؤس البائسين وعوز المعوزين وحاجة المحتاجين ، فقررت لهؤلاء جميعاً حقوقهم فى أموال الأغنياء والقادرين قررتها على ذوى القربى ثم على غيرهم .

فللفقراء العاجزين على ذوى قرباهم القادرين أن يؤدوا إليهم ما يقوم بكفايتهم فى أنواع نفقاتهم كما أن لهم فى أموالهم حقاً آخر واجبا يشير إليه قوله تعالى : وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا . وللفقراء والمساكين والسائلين والمحرومين حقوق كثيرة فى أموال الأغنياء . فالزكاة فريضة محكمة وركن من أركان الأسلام .

كما أن هناك حقوقا واجبة أخرى سواها عند كثير من العلماء يشير إليها قوله جلت حكمته : كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده . وقوله سبحانه : وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم . أما صدقة التطوع فى نظرها فهى من أفضل الرغائب وقد استجاب لها المسلمون اعظم الاستجابة فأدت على مر العصور أفضل الخدمات الاجتماعية .

والزكاة قد فرضها الله جلت حكمته فى أموال الأغنياء من المسلمين لترد على فقرائهم وجعلها طهرة للمتصدقين مما عساه أن يكون قد وقع منهم من اللمم حين زاولوا كسب أموالهم ، وطهرة للمتصدقين مما عساه أن يكون قد علق بها عن غير قصد ولتكون عونا للفقراء المحتاجين والمساكين البائسين على مواجهة أعباء الحياة ، وعونا لطالبي الحرية على تحرير رقابهم ، وانقاذا لمن وقعوا فى الشدائد لانقطاع السبيل بهم ، وإعانة . . للمدينين . وفى كل هذا كف للأبصار والأطماع المحدودة ، وسل للأحقاد وغل الصدور ، وفيه وفاء بحق الانسانية وأمن لأصحاب الأموال على أموالهم وكفالة لخير نظام تسير عليه الدولة « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم »

والزكاة وكثير من أنواع العون المالى قد سماها الله سبحانه صدقة لأنها عنوان على صدق الايمان وفرض سبحانه ما فرض وأوجب ما أوجب ورغب فيما رغب بالمقدار الذى لا وكس فيه ولا شطط وفيه الرضا من جانب والكفاية من جانب آخر ، هذه هى تعاليم الاسلام الحكيمة ، فليسمها من يشاء اشتراكية سليمة ، أو فليسمها بما يشاء من الاسماء ، فليس يعنينا أن نقول إلا أنها أفضل ما يكفل للجماعة وللأفراد الخير والسعادة .

التعـــــاون

التعاون من أقوى روابط الانسانية واحكمها ، ومن أفضل الوسائل إلى بلوغ الغايات وخير كفيل بتحقيق المصالح ودرء المفاسد ، وهو أصل ثابت للكثير من عوامل التقدم والكمال وجماع للوفير من أسباب الرقي والحضارة . ومتى أمتدت كل يد إلى سائر الأيدى مؤازرة بلغت القوة ذروتها وأرتقت الانسانية فى معارج السمو الروحى واستكملت عناصر القوة المادية على سواء . وأن آثر كل إمرىء أن ينطوى على نفسه ، لا ينظر إلا إلى خاصتها ولا يمد يد العون إلى غيره ، ولا يستعين بسواه ، قصرت به الوسائل ، وفسدت أموره ، واستحكم الاضطراب ، وفشا التأخر وانجرت الانسانية نفسها إلى حافة هوة سحيقة من الانحطاط والانحلال . بهذا مضت سنة الله فى عباده ، وبهذا قضت فطرته التي فطر الناس عليها ، وبهذا شهد ويشهد ماضى الأمم والشعوب وحاضرها . ولهذا كانت عنايه الاسلام بالتعاون أعظم عناية ، يدعو إليه فى قوة ، ويرغب فيه بأعظم المثوبة ، ويتوعد من أعرض عنه أو تهاون فى أمره بالويل والخذلان بهذا نطق الكتاب الكريم فى مواطن كثيرة ، وبه جاءت السنة النبوية الصحيحة ، فالله جلت حكمته يقول : (وتعاونوا علي البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب) . أمر جل شأنه بالتعاون الشامل الجامع ، التعاون على البر وما فيه الخير الخاص ، والتعاون على التقوى وما فيه من النفع العام . ونهى جل قدره عن التعاون على ما هو نقيض لهما وتهدد بالعقاب الشديد من يخالف أمره أو لم يجتنب ما نهى عنه . ومواطن التعاون والخلال التي تحقق معناه فى الكتاب الكريم أكثر من ان تذكر فى مقامى هذا . ورسول الله ﷺ يقول : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . ويقول ﷺ :

المسلم اخو المسلم ، لا يظلمه ولا يؤلمه ، اى لا يعيبه ، من كان فى حاجة اخيه كان الله فى حاجته . ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامه .

وروى مسلم وغيره أنه ﷺ قال : من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة . ومن ستر على مسلم فى الدنيا ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه .

وروى ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما من عبد أنعم الله عليه نعمة فاسبغها عليه ثم جعل من حوائج الناس إليه فتبرم فقد عرض تلك النعمة للزوال — وروى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ان رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله أى الناس أحب إلى الله ؟ فقال أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس ، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم . تكشف عنه كربة ، أو تقضى عنه دينا ، أو تطرد عنه خوفا . ولأن أمشي مع أخ فى حاجة أحب إلى من اعتكف فى هذا المسجد شهراً . ومن كظم غيظه ، ولو شاء أن يمضيه أمضاه ، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا . ومن مشى مع أخيه فى حاجته حتى يقضيها له ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام وروى أيضاً أن رسول الله صل الله عليه وسلم قال : من أعان عبداً فى حاجته ثبت الله مقامه يوم تزل الأقدم .

هذه هى مكانة التعاون على الخير فى النظرة الإسلامية . أماالتعاون على الإثم والعدوان فى اى بيئة وفى اى محيط فهو من أعظم الجرائم واكبر الكبائر ، به تنتهك الحرمات ، وتسلب الحقوق ، ويروع الآمنون ويستعبد الأحرار ، وتذهب ريح الأمن ويستشرى الرعب والفساد . فما هو إلا شر مستطير ومعول هدم ودمار وخراب .

والتعاون الصالح ، التعاون على الخير الخاص فى مختلف البيئات والتعاون على الخير العام فى مختلف المحيطات ، لا يحقق أهدافه ولا يؤتى اكله ، إلا إذا تحقق

نيات المتعاونين ، وكان صادراً عن رغبة صادقة تدفع إلى العمل الجاد فى قوة وإخلاص . اما إذا شابه الرياءوالنفاق ، او تحكمت فيه النزعات الفردية والمصالح الشخصية ، او لوثته عوارض الخيانة . او الإهمال ، او الدس والتآمر ، او كان صادراً عن إكراه او تورط ومجاملة ، فلا مصير له فى جميع هذه الأحوال إلا الفشل الذريع وكثيراً ـ ما يكون أثمه اكبر من نفعه .

والتعاون الصالح يكون فى اضيق البيئات ويكون فى اوسع المحيطات ، يكون بين رب الأسرة وأهله وولده ، ويكون بين الأسرة الجامعة وإن تباعدت القرابات ، ويكون بين الشركاء فى التجارة او فى الصناعة او فى الزراعة او اى مهنة أخرى أو عمل آخر ، ويكون بين أهل القرية ويكون بين أهل المدينة أو الولاية ، ويكون بين أفراد الأمة جميعاً ، ويكون بين الراعى ورعيته ، ويكون بين مجموعة معينة من الدول . وقد يكون بين جميع الدول . والتعاون فى كل من هذه المحيطات له وسائله الخاصة التى تلائم كيانه وتحقق مصالحه على وضع لا يتعارض مع مصالح المحيطات الأخرى بل يسايرها وقد واجه التشريع الاسلامى جميع هذه الأحوال.وشرع لها أفضل الأحكام وسن لها خير التعاليم .

تعـاون الاسرة

التعاون من أقوى دعائم الحيـاة الاجتماعية السليمة الـكاملة ، بل هو أمتنها وأقواها فما مثل الجماعة إلا مثل الجسد الواحد له أعضـاؤه الـكثيرة الظاهرة والباطنة متفاوتة المكانة والمراتب ولـكل عضو منها وظيفته وأعمـاله التى هيىء لها ولا يحسن سواه أداءها ، ولا غنى عنها بحال مهما بدأ شأنها صغـيراً . فإذا انتظم هذا الجهاز وحسن سيره فى عمله فأدى كل وظيفته وأخلص فى القيام بمـا هو واجب عليه ، واستحث من عداه ليؤدى أعماله وواجبـاته وبادر إلى معونته ما استطاع فيما يعجز او يقصر عن الوفاء به ، استقام أمر هذه الجماعة وأسرعت خطاها الى أعلى مراتب القوة والعزة والـكمال ، وعاد خير ذلك كله الى الجماعة والى كل فرد منها على سواء . أما اذا فشا فى أى مجتمع إهمال الفرد القيام بوظيفته أو تقصيره فى أداء ما هو واجب عليه لجماعته وسائر أعضائها ، وسـادت الاثرة وقال كل : نفسى نفسى مالى ولشئون غيرى ، اختل نظام هذا المجتمع واضطربت اموره ، وتقطعت روابطه بذهاب ريح التعاون بين افراده ، واسرع بخطى واسعة إلى مهاوى الضعف والذلة والهوان ، واصابت شرور ذلك الجماعة والأفراد على السواء ولقد حرص الاسلام وحرصت تعاليمه على تربية النفوس فى كل المحيطات ومختلف البيئات على الايمان بالتعاون والتفانى فى حبه ، وادراك ان من يعمل لخير الجماعة ليس الا عاملا لخير نفسه ، وضربت لذلك الأمثـال التى رويت منها الحظ الوافر فيما سلف ، حتى يكون التعاون صادراً من عقيدة راسخة ، وبوازع نفسى روحى ، ولا تشوبه شائبة من رياء ولا تردد . فذلك هو التعاون الصادق المثمر الذى يفيض خيره على الجميع ، واذا سنه اولوا الأمر او دعا اليه غيرهم سارع المؤمنون فى الاستجابة الى ما يدعوا اليه ، فانه عقيدة من عقائدهم وشعبـة من شعب ايمانهم .

والأسر الصغيرة ـ اسر الأزواج والوالدين والولد ومن اليهم ـ هى الخلايا العاملة الناصبة وهى اللبنات التى يقوم بها بناء مجتمعنا ، ففى صلاح امورها صلاح اموره ، وفى اختلال شئونها اختلال شئونه ، ولا اصلاح لأمورها الا بالتعاون الصادق المثمر فيما بين اعضائها ، يؤدى كل منهم ما لها عليه من الواجبات ، ويستوفى كل منهم ما له فيها من الحق فى قصد واعتدال ، ويسود فى ناديهم الايثار والرحمة والمودة ، ويعملون جاهدين على ان يجنبوا مجتمعهم الصغير الآفات التى تصيب تعاونهم فتقضى عليه أو تورثه الهزال والمرض العضال . وذلك ما اتجهت إليه التعاليم الاسلامية الرشيدة مساندة لما تمليه الفطرة الإلهية وحكمة العقول المتدبرة ومنطق المصالح وواجهت ذلك جملة وتفصيلا .

فالقرآن الكريم يرشدنا الى أن أساس الأسرة وبدء تكوينها ، هو الرابطة المقدسة ، رابطة الزوجية ما شرعه جلت حكمته إلا لتكون وسيلة الى التعاون ، والتعاون على حفظ النوع بالتناسل وتربية الولد ، والتعاون على مواجهة أعباء الحياة داخل البيت وخارجه فى سكن واطمئنان وود متبادل ورحمة من الجانبين ، ومراعاة لهذا المعنى الاجتماعى النبيل عرف كثير من الفقهاء الزواج بأنه عقد شركة بين الزوجين وما هذه الشركة إلا شركة تعاون من الطرفين. وما قامت إلا من أجل هذا التعاون (.ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

ولم تقف هذه التعاليم الرشيدة عند هذا المعنى الجامع بل وتغلغلت فى كيان الأسرة وكل أمورها من الناحية المادية ، ومن ناحية الآداب ومكارم الأخلاق ومن سائر النواحى الدينية والروحية والاجتماعية ، فبينت الحقوق والواجبات فيما بين أعضاء الأسرة أدق بيان يكفل التمايز والوضوح ، ويقضي على الاشتباه ، ويحول بينهم وبين البغى والطغيان ، وفصلت الأحكام المحكمة ، التى اتجهت أول ما اتجهت إلى خلق التعاون وإقراره وتثبيت دعائمه فى بناء الأسرة الصغيرة ، وحمل كل من أهلها على ان يهيء للآخرين الجو الصالح الذى يمكنهم من القيام بواجباتهم ومن الوفاء بما عليهم لهذه الأسرة من الحقوق ، وحملتهم أيضا على ان يمدهم بعونه على ذلك مااستطاع اليه سبيلا ومن تقصي هذه الأحكام وتدبرها أيقن بأنها ماشرعت

إلا لبث التعاون فى الأسرة لا فرق فى هذا بين الصغير والكبير ولا بين الذكر والأنثى وقد عملت هذه التعاليم جاهدة على تحسين التعاون فى الأسرة ووقايته مما يصيبه من الآفات المتنوعة ، وهى آفات كثيرة منها إهمال الرجل لأسرته وتضييع أهله وولده وكفى بالمرء إثما ان يضيع من يعول ، وإهمال المرأة لبيت زوجها وولده وهى راعية فى بيته وكل راع مسئول عن رعيته . ومنها الغيرة العارمة المفرطة التى لا مبرر لها ، والغيرة الظالمة التى لا تمليها إلا شكوك واوهام لا قرار لهـا ، وان من الغيرة غيرة يبغضها الله ورسوله . ومنها ان يسلك رب الأسرة او ربتها مسالك الريب ، فيكون أسوأ قدوة ، ويكون مسلكه باعثاً للتنافر والشقاق والانحلال . من سلك مسالك الريب اتهم ولا أجر له . ومنها ظهور الأثرة بين أعضاء الأسرة . فلا ثمرة لهذه الحالة المقيتة إلا التباغض والتدابر وإزهاق روح التعاون . ومنها جور الوالد والوالدة فيما يمنح للولد من الأموال أو فيما يسبغانه عليهم من الرعاية والإقبال ، فليس من وراء ذلك إلا التغاير والتحاسد وتقطيع الأرحام . فهذه الآفات وأشباهها قد واجهها التشريع الإلهى وسن لها خير وقاية وأفضل علاج .

وبعد فتعاون الأسرة هو عنصر حياتها الرئيسى ولن يؤدى وظيفته إلا إذا كان صادراً عن إيمان وعقيدة وكان مصدره الوازع الدينى .



هيئة قنـاة السويس

معسـكر الشباب بالاسماعيليـة

افتتـح فى أوائل شهر يوليو ١٩٥٩ معسكر للشباب على بعد خمسة كيلومـترات من مدينة الاسماعيلية لاشراك الشباب العربى فى عمليات توسيـع القناة .

ويقوم المتطوعون بالعمل فى القناة على أفواج يتألف كل منها من ٤٠٠ شاب بحيث يعمل كل فوج لمـدة ١٢ يوما ثم يترك العمـل للفوج الذى يليه .

يبدأ البرنامج اليومى للمتطوعين فى الخامسة صبـاحا بتمرينات رياضية يعقبها تناول الافطار فالعمل فى توسيـع القناة لمدة أربع ساعات . وبعد الغذاء يستأنف العمل ، عقب فترة الراحة ، لمـدة ساعتين من الرابعة إلى السادسـة مساء .

وفى المساء يبدأ النشاط الثقافى الذى يشمل محاضرات عن تاريخ القناة واثرها فى الاقتصاد العالمى ثم احاديث عن الفنون البحرية واخرى عن القومية العربية ومشروعات الثـورة .

ولا تقتصر مهمة الشباب على القيام باعمال الحفر ونقل الرمال فحسب بل هناك مهمة اخرى لاتقل اهمية عن تلك ، وهى إزالة اكوام الرمال من المنحنيات على شاطىء القنـاة لتتمكن السفن من الرؤية على مسافات بعيدة بدلا من ان تحجب هذه التلال المناطق التى خلفها ، فتستطيـع ان تسـير فى طريقها الطبيعى دون ان تضطر إلى البطىء خشية الاصطدام فى المنحنيات .

وقد عينت هيئة قناة السويس ضابط اتصال لتنسيق العمل مع مدير المعسـكر والرواد وقواد الفرق كما انها تتحمل نقل الطعام والترفيـه عن المتطوعين .



١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون : ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥

العـــدد ١٥٥ **الثمن ٦ قروش**